د. حسين سبيتي

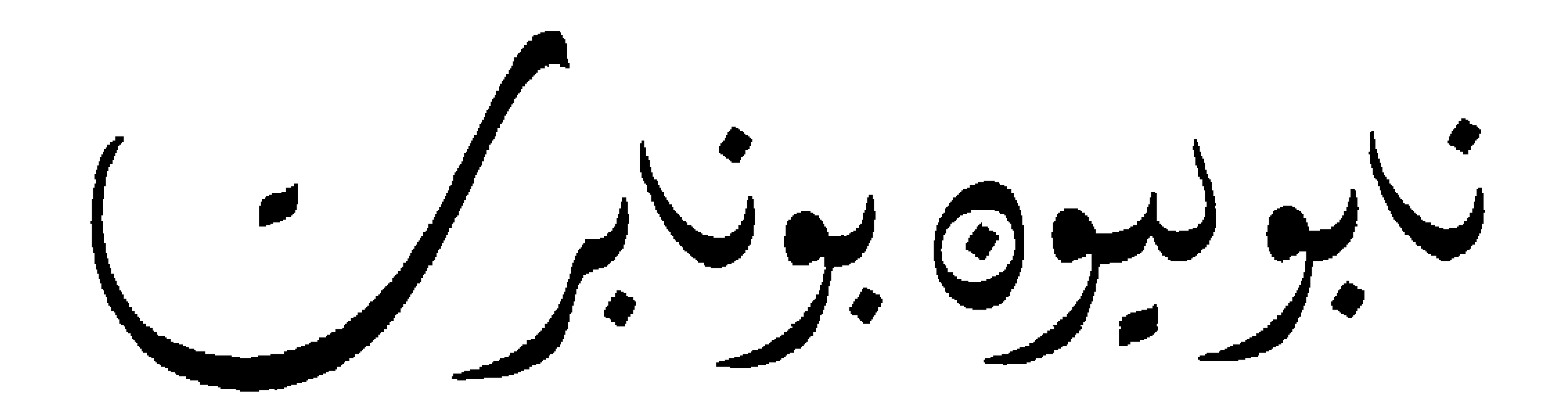
نابليون بونابارت

Napoléon Bonaparte

دار الهادي

نابوليون بونابرت





تأليـــف

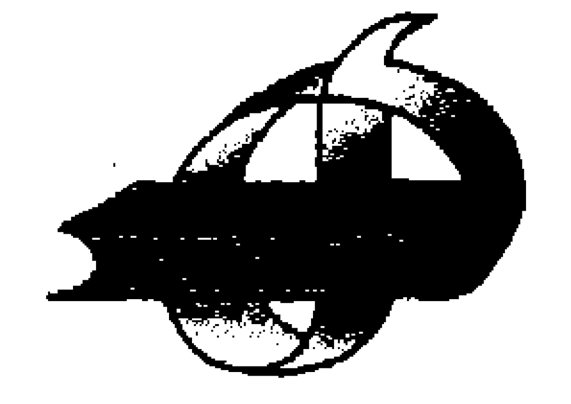
الأستاذ الدكتور حسين محمد سبيتي

الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية



الطّبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص. ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الإهـــداء

إلى أرواح الشهداء المقاومين من أمتي العربية الإسلامية ومن وطني لبنان. . .

إلى دمائهم الزكية التي خضبت تراب جنوب لبنان وبقاعه الغربي. . .

أقدم هذا الكتاب عرفاناً لهم بجميل الفِداء وبقدسيَّة الشهادة.

المؤلف

تقـــــديم

الأستاذ الدكتور الياس القطّار

كلية الآداب ـ الجامعة اللبنانية

نابوليون بونابرت، ابن كورسيكا الجزيرة المتوسطية، القائد العسكري الأسطوري، كان أيضاً قائداً طليعياً في مجال القانون والعمران والتربية والعلوم والتنظيم الإداري والفنون، بحيث أنّه ترك بصماته في غالبيّة الأنشطة الإنسانية، عدا العسكرية والسياسية.

ومن يزر قبره ومتحف آثاره في قصر «الأنڤاليد» في باريس، العاصمة الفرنسيّة، ينحني بإجلال أمام هذا النابغة الذي عرف كيف يجمع التفوّق العسكري إلى التفوّق الحضاري.

كان لرجع أصداء التاريخ وقع في نفسه، منذ صغره، وكان حلم القادة العظماء يدغدغ مشاعره ويسري في عروقه.

كان يرنو إلى خلق جغرافية ـ سياسيّة تتواصل فيها الحضارات: ثقافات الشرق بثقافات الغرب، من أجل ثقافة كونيّة رائدة، روحها وقلبها العقل، تماماً كما تحقق ذلك في مشروع الإسكندر المقدوني، ذلك البطل التاريخي الأسطوري الآخر الذي أسّس للحضارة الهلنيستيّة.

كيف لا، ونابوليون بونابرت هو ابن الثورة الفرنسية الكبرى التي

بدأت في ١٧٨٩ ، مؤلّهة للعقل وممجّدة لعبادته .

هذه الثورة التي أراد لها مفكّروها ودعاتها، أن تكون ثورة العقل، التي تتولّد منها عناصره الثلاث: الحرية، المساواة والإخاء، خرجت عن طريقها، فأكلت بنيها كما في كلّ الثورات، بعدما عمَّم بعض قادتها المتطرّفون، الرُّعب وحمّامات الدّمّ والقتل على الشبهة.

وصول نابوليون إلى السُّلْطة أوقف الارتجاجات الزلزاليّة للثورة، ووضع حدّاً فاصلاً وحاسماً لشهوات التطرّف والعدميّة، ودفع البلاد باتجاه سلطة المؤسسات، برغم تسلّطه ودكتاتوريته، وتجييره المكاسب الديمقراطيّة التي نادت بها الثورة لصالِحِه ولصالح سلالته.

مشروعات وطموحات نابوليون العسكريّة والسياسيّة، تحطّمت أمام تحالف القوى الأوروبيّة ضدّه، أمّا مشاريعه الحضاريّة فبقيت، وكانت بداية لمشاريع ستثمر لاحقاً، وستساهم في مجد فرنسا الحضاري.

هذه الحالة أو الهالة التي أحاطت بنابوليون أثارت فضول المؤرّخين والكُتّاب، فكانت الكتب عنه باللغات الأجنبيّة، خاصة الأوروبيّة منها، بالمئات، تحلّل هذه الظاهرة وتغوص في دراستها وتوضّح معالِم سيرتها. ولكن ما نجده، عن بونابرت، في اللغة العربيّة أكثر من قليل، لذلك أبى الصديق والزميل الأستاذ الدكتور حسين سبيتي، الأستاذ في الجامعة اللبنانية، إلاّ أن يُبحر في أمواج نابوليون، مقدّماً للقرّاء في اللغة العربيّة صورة جليّة موجزة توضّح معالم شخصيّة هذا القائد التاريخي الفذّ.

لقد أحاط الدكتور حسين سبيتي بتاريخ نابوليون من ولادته، متوقفاً عند المحطات التي مرّت بها سيرة حياته، من العائلة إلى المدرسة الحربيّة فإلى بداية التميُّز في حصار طولون فإلى بداية النصر في إيطاليا ثم

الأسطورة في مصر فالانتصارات الكبرى في أوسترليتزوإيينّا مروراً بالانكسارات المدمِّرة في روسيا وليبزيغ وبالنهاية الأليمة والخسارة الفادحة في واترلو وعودة الملكيّة إلى فرنسا، متوقفاً أخيراً أمام انتصارات نابوليون الدائمة والخالدة في القانون والعلوم والأفكار والحضارة عامة.

لقد استند المؤلِّف لتحقيق الكتاب إلى مراجع عربيّة وغربيّة، فقدّم صورة عن نابوليون فيها الكثير من الوضوح والموضوعية، صورة متكاملة تقريباً، واضعاً بتصرّف القرّاء العرب مرجعاً نفيساً ومفيداً.

مقدّمــة

يتحدث الناس بإسهاب من خلال الصحف اليومية والمجلات ووسائل الإعلام عن الوحدة الأوروبية وإمكانية تحقيقها على جميع المستويات الاقتصادية في التجارة والنقد والمصارف والتبادل الصناعي والزراعي وكل ما يهمّ أو يرتبط بحياة الشعوب، ولا تزال عدة دول من أوروبا مرشحة للدخول في الوحدة الأوروبية التي تستمرّ في الاتساع والتضخّم بحيث أصبحت قوّة اقتصادية جديدة تهدِّد القوتين المعروفتين؛ اليابان في الشرق والولايات المتحدة في الغرب.

ولكن هذا الكلام على الوحدة الأوروبية لا بُدَّ من أن يعيدنا بالذاكرة إلى نابوليون الذي كان أوّل من فكّر في هذا الاتجاه، ولقد حاول هذا الرجل توحيد أوروبا تحت سيطرته ليفرض عليها القانون الذي ابتدعه العقل الفرنسي ومبادىء الثورة الأساسية حول الحرية والمساواة والعدالة التي انبثقت من روح الثورة الفرنسية ومن عصر التنوير بالذات. وكان نابوليون يحلم بتوحيد القارة الأوروبية كلها وتوحيد قوانينها وسلطتها والنقد المتداول فيها وغير ذلك بحيث تصبح وكأنها دولة واحدة ذات شخصية واحدة وحتماً خاضعة للأمبراطور نابوليون.

ولذلك وجدنا أنه من العدل أن نبدأ كتابنا هذا عن نابوليون بالكلام

على الوحدة الأوروبية كمفتاح للعودة إلى تاريخ ذلك الرجل العظيم الذي طبقت شهرته الآفاق، ونحن لا نبالغ أبداً إذا قلنا إنّ ما كتب حول نابوليون وعن شخصية نابوليون وحروب نابوليون وأعمال نابوليون يتعدى بمجمله الأربعمائة ألف كتاب في عدة لغات حيّة. ونرجو أن تصبح دراستنا هذه المتواضعة عملاً توضيحياً جديداً لفهم تلك الشخصية الفذّة وإلقاء بعض الأضواء على أبعادها العميقة وتشعباتها الغنية والزاخرة بالحياة والعطاء والعبقرية.

والآن لننتقل إلى دراسة حياة نابوليون وتطوّرها بجميع مظاهرها المتعدّدة، لأنّ صاحبها كان مخططاً عسكرياً متفوّقاً وقائداً اجتماعياً ورجلاً سياسياً وإمكانية حضارية نادرة. وقد وجدنا أنه من الأفضل تتبّع سيرته وفقاً لتطوّر حياته لأنّ نبوغه العسكري قد تطوّر، كما أنّ أفكاره السياسية وطموحاته وعلاقاته بغيره من القادة والناس قد تغيّرت وتطوّرت باستمرار تطوّر حياته وشخصيّته وتحت تأثير العوامل المتعدّدة المحيطة به في المجالات السياسية والعسكريّة والاجتماعية. ولا ندّعي مع ذلك الإحاطة التامة بكلّ ما يتعلّق بنابوليون إذْ لا يستطيع أيّ دارس استيفاء أيّ شخصيّة أو عبقرية بهذه الخطورة وبهذه الأهمية، وسنكون سعداء جداً إذا نجحنا في الإشارة إلى أهم الخصائص أو الخطوط الرئيسة التي تميّزت بها هذه الشخصية في المجالات العسكرية والسياسية والحضارية.

لا نستطيع البدء بدراسة نابوليون قبل أن نلقي نظرة سريعة على أوروبا في عصره. فالإنسان هو ابن البيئة دائماً ومهما كان متفوّقاً وخلاّقاً، فإنّ لعوامل المحيط الخارجي دورها الرئيسي في توجيه سلوكه وأفكاره ومشاريعه ويظهر أنّ أوروبا كانت متفككة في عصره ومؤلفة من دول أو دويلات، وبالرغم من أنّ النمسا وهنغاريا كانتا تشكلان مملكة

واحدة فإنّ ألمانيا كانت مقسمة إلى مقاطعات، منها بروسيا وڤيمار وغيرهما وكذلك إيطاليا التي كانت بدورها مجزّأة إلى ولايات صغيرة أظهر التاريخ فيما بعد ضعفها وعجزها من النواحي الاقتصادية والعسكرية. وقد تكون إنكلترا أوْفر الممالك حظاً بسيطرتها المطلقة على البحر. فإنكلترا كانت تملك أسطولاً عسكرياً قوياً وأسطولاً تجارياً ضخماً يجوب البحار والمحيطات إلى الغرب نحو أميركا وإلى أفريقيا (أي مصر والسودان) وإلى المحيط الهندي وحتى المحيط الهادىء في الشرق، فلا عجب بعد ذلك إذا كانت أكثر الممالك حذراً وتخوّفاً من سلطة نابوليون هي إنكلترا لأنها وجدت فيما بعد أنّ قوتها العسكرية ستحدّ من سيطرتها العسكرية وستضرب أسواقها التجارية وستقطع عليها طرق الملاحة في الشرق والغرب. ولذلك رأت إنكلترا في نابوليون العدوّ الأساس والأخطر في حياتها، ونابوليون أيضاً وجد في إنكلترا أخطر أعدائه نظراً لتفوّقها العسكري في البحر وتفوّقها الاقتصادي بواسطة أساطيلها التجارية العديدة ومستعمراتها الكثيرة والغنيّة والتي كانت تمدّها دائماً بالثروة، ومن سخرية القدر أن يُنْهي نابوليون حياته وأن يسلّم نفسه للعدوّ الذي وجده طيلة حياته أشرس أعدائه وأخطرها عليه.

غيّر أنّ ملوك أوروبا كانوا يخافون أحياناً من فرنسا أو من تسرّب الفكر الفرنسي إلى بلادهم وشعوبهم، وقد بدأت أفكار الثورة الفرنسية تشعّ خارج حدود فرنسا وحركة التنوير التي انطلقت من كبار الكُتّاب الفرنسيين من أمثال ڤولتير وروسو ومونتسكيو وديدرو والكُتّاب الموسوعيين وغيرهم، والاتجاه نحو العقل والحرية والمساواة والتخلّص من سلطة الكنيسة والملك وغير ذلك. كلّ هذه الأمور بدأت تجتاز حدود فرنسا لتلقّح عقلية الشعوب الأوروبية أجمع في إيطاليا وألمانيا

وبروسيا وروسيا وغيرها.

فإذاً كان هناك خوف من ملوك أوروبا على تيجانهم وعروشهم نتيجة نموّ الثورة الفرنسية وأفكارها ومبادئها وخطر اندلاعها خارج الأراضي الفرنسية.

أمّا في فرنسا بالذات، فإنّ الوضع يختلف تماماً لأنّ الشعب الفرنسي كان منهوك القوى نتيجة الإبادة والدّماء والمجازر التي حصلت على أرضه، ولقد فتكت الأحزاب بعضها ببعض ولم يكتفِ الثوّار بإعدام الملك لويس ١٦ وإعدام الملكة ماري أنطوانيت وإعدام بعْض النبلاء والأرستقراطيين بل تحوّلت حركات التصفية إلى مجازر رهيبة لا تهادن ولا ترحم، فراح العديد من الأبرياء ضحيّة الفوضى والاتهامات والتطرّف وسقط معظم قادة الثورة ضحايا المقصلة. وهكذا قطع رأس دانتون ثم رأس روبسبيير والكثير من أمثالهما.

لقد أنهكت الثورة الشعب الفرنسي وأضعفت موارده الزراعية والتجارية وشغلته بنفسه بدل أن يعمل في تنمية الاقتصاد وتطوير وتحسين ظروف معيشته.

ولكنّ غليان هذا الشعب بشكل دائم والقوة التي أظهرها والهزيمة التي بدت عليه واستعداده للتوثّب والحياة وسائر المعطيات الإيجابية في شخصيته، حوّلته إلى حصان جموح يحتاج إلى مَن يروّضه ويوجهه ويحسن إدارته والإفادة منه. وأتى هذا الفارس الشجاع الذي استطاع ترويض الحصان الجموح فقبض على لجامه وشدَّ عنانه ووحّد قواه وخلّصه من جموحه والفوضى التي كان يعاني منها وأطلقه في سباق جديد؛ هو اكتساح أوروبا. لا شكّ أنّ هذا الفارس هو نابوليون الذي استطاع بذكائه

الحادّ أن يقلب المعادلة، فبعد أن كانت فرنسا المنهوكة موْضع اهتمام أوروبا لتصبح فريسة ينقضّ ملوك أوروبا عليها، أصبحت هي الدولة القويَّة التي ستنقضّ على أوروبا وستخيف الملوك وستجتاح أراضيهم وتهدِّد تيجانهم، وهذا ما حصل تماماً، ولقد نجح نابوليون باجتياح أوروبا والسيطرة عليها وانتصر على ملوكها وجيوشها في معارك عديدة.

الفصل الأول

طفولة نابليون

يظهر أنّ اسم نابليون باللفظ الكورسيكي هو نابوليون بونابرت، ويجمع المؤرّخون على أنّ هذا القائد الكبير هو من أصل كورسيكي، وقد ولد في مدينة أجاكسيو في ١٥ آب ١٧٦٩م. ويظهر أنّه كان لعائلته بعض النفوذ في الجزيرة إذ كانت العائلة تملك بعض الأشياء البسيطة التي تعيش منها وتعمل في بعض المشاريع التجارية التي كانت تؤمّن لها عيشاً معقولاً ومستوىً مرموقاً بالنسبة لباقي سكان الجزيرة.

ولا عجب بعد ذلك إذا انضمّت عائلة نابوليون إلى حركة الاستقلال عن حكومة جنوى، خاصة بعد الثورة التي قام بها الزعيم الكورسيكي Pascal باسكال باثولي، ويظهر أنّ جزيرة كورسيكا كانت تابعة سياسياً وإدارياً لإدارة جنوى، وقد حصل ذلك في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي أي في الفترة القريبة جداً من ولادة نابوليون الذي نحن بصدد دراسة حياته وأعماله الآن.

وقد لاحظ المؤرّخون أنّ نابوليون وجد جزيرة كورسيكا ومجتمع كورسيكا وبيئة كورسيكا صغيرة جداً وضيّقة عليه ولا تتسع لطموحاته

العظيمة فاتّجه تلقائياً إلى فرنسا حيث وجد فيها مجالاً لطموحاته، كما أنّ فرنسا وجدت فيه القائد الكبير الذي يقودها إلى النصر ويفرض سيطرتها على أوروبا بعد أن ضعفت عسكرياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً بعامل الثورة الفرنسية، ويجب ألاّ ننسى أنّ جزيرة كورسيكا قد أصبحت تابعة لفرنسا سنة ١٧٦٨م لأنّ حكومة جنوى تنازلت عنها نهائياً لصالح فرنسا.

أما والد نابوليون فاسمه كارل أوشارل ماريا بونابرت، وكان دكتوراً في الحقوق وصاحب ثقافة واسعة جداً، كما أنه كان يمتاز بذوقه المرهف وعلاقاته الاجتماعية العديدة.

لقد تزوّج كارل أوشارل سنة ١٧٦٤م من فتاة اسمها ماريا ليتيزيا رامولينو، وكانت على جمال عظيم وهي متحدّرة من عائلة أرستقراطية معروفة جداً في كورسيكا، وكانت هذه الزوجة متميّزة بأخلاقها وحزمها ونُبْلها ورجاحة عقلها، ويظهر أنّ نابوليون قد ورث الكثير من صفات أمّه العقلية والأخلاقية.

وبعد أن باعت جمهورية جنوى جزيرة كورسيكا لفرنسا قامت في كورسيكا اتجاهات وطنية ضدّ فرنسا بقيادة الزعيم الكورسيكي باثولي ولقد ساعدت العائلات البونابرتية هذه الحركات كثيراً في بادىء الأمر غير أنَّ السنة ١٧٦٩م. أي سنة ولادة نابوليون كانت سنة الحسم لأنّ الفرنسيين سحقوا نهائياً حركة التمرّد في كورسيكا مما اضطرّ زعيمهم باثولي للهرب إلى إنكلترا، وعند ذلك، تصالح والد نابوليون شارل بونابرت مع الفرنسيين واكتسب اسم: كارل دي بونابرت.

وفي رأي المؤرِّخين أنَّ السنوات الأولى لحياة نابوليون في أسرِته كانت رزيّة للغاية ومليئة بالشجار والمعاكسات، ولطالما سخِرت الصحف

الإنكليزية فيما بعد من طفولة نابوليون فصوّرته بالكاريكاتير، يضرب إخوته أو يتلقّى الضرب منهم ويحمل كل واحد منهم عصاً أو سكّيناً أو بعض قطع من أثاث المنزل.

وفي سنة ١٧٦٣م انتهت حرب السبع سنوات التي دارت بين فرنسا وإنكلترا فتوطّد الاستعمار الإنكليزي في كندا والهند وغيرهما. وبعد اثنتي عشر سنة انفجرت حرب الاستقلال الأميركي فتورّطت إنكلترا من جديد في حروب ومعارك عديدة من أجل السيطرة على البحار وتأمين الطرق والممرات لأساطيلها التجارية وقد ساعدت أميركا فرنسا ضد إنكلترا في هذه الحروب وانتهت المعارك بهزيمة إنكلترا هزيمة نكراء في معركة بوركتون.

وإذا عُدْنا إلى الوضع الاقتصادي بوجه عام، والمقارنة بين إنكلترا وفرنسا وغيرهما من الدول، وجدنا أنّ الصناعة قد تطوّرت كثيراً وتقدّمت في بريطانيا وخاصة بعد أنْ ابتكر جيمس وات المحرّك البخاري وأدخله إلى المصانع، وبهذه الطريقة انتقلت القوة الاقتصادية والحركة التجارية من أيدي أصحاب الأملاك الزراعية إلى أيدي أصحاب الرساميل وأصحاب المصانع.

ويبدو أنّ فرنسا كانت متأخرة جداً وضعيفة وهزيلة، خاصة من النواحي الاقتصادية لأنّ الثورة والأحزاب وإراقة الدّماء أنهكت الشعب الفرنسي وتركته في حالة عدم استقرار وحالة إهمال للإنتاج وللاقتصاد بالرغم من أنّ فرنسا كانت أسبق الدول الأوروبية من النواحي الفكرية، لأنّ حركة التنوير التي عمّت كلّ أوروبا والعالم فيما بعد، كانت قد انطلقت من فرنسا وعلى يد كبار المفكّرين الفرنسيين من أمثال ڤولتير وروسو

ومونتسكيو وديدرو والكتّاب الموسوعيين الخ . . .

وعلينا ألاّ ننسى أنّ نابوليون استطاع بذكاء خاص الإفادة مِن الثورة الفرنسية ومن فلسفة التنوير وخاصة فيما يتعلق بضرورة التفكير بقوانين جديدة تصلح للحياة الجديدة وتعمّ فرنسا وأوروبا معاً، كما أنه أفاد مِن جميع التيّارات داخل الثورة الفرنسية دون أنْ ينتمي إلى أحدٍ منها أو ينزلق في مخاطرها ومتاهاتها. فقد جنّبه حذره الزائد من الحماس والتهوّر والسقوط في الهفوات التي وقع فيها كبارٍ وقادة رجال الثورة من أمثال دانتون وروبسبيير.

وقبل أن ننتقل إلى دراسة نابوليون في مدرسة بريّان وبدء حياته العسكرية، لا بُدَّ لنا من الوقوف قليلاً على بعض النواحي الخاصة بحياته العائلية والتي نجدها هامة لأنها ستظهر فيما بعد وخاصة عندما أصبح نابوليون أمبراطوراً وسيِّداً على أوروبا كلّها. فهذا القائد العسكري الذي عُرف بالبساطة والشجاعة والإرادة وحسّ الواقع، وقدرته على التفاعل مع الجيش بدْءاً من الفرد العسكري حتى كبار الضباط. هذا القائد الكبير هو نفسه سيصبح أمبراطوراً ولم ينسَ أبداً إخوته وإخوانه فأعطاهم جميعاً كلّ ما استطاعه. وسنورد باختصار بعض الملاحظات أو الأفكار الهامة حول أفراد عائلته التي ساعدت بشكل مباشر أو غير مباشر على خلْق مناخه العائلي في صغره والتي تركت بصماتها على شخصيته وعلى أعماله فيما بعد:

أ ـ والده:

كارل، دكتور في الحقوق: عمل في منصب معاون الرئيس في القضاء الملكي وقد توفي في سنّ الـ٣٨ وقيل إنه مات إثر إصابته بسرطان

المعدة ويظهر أنّ هذا المرض انتقل بالوراثة إلى ولده نابوليون.

ب ـ والدته:

أصبح لقبها فيما بعد أي عندما أصبح نابوليون أمبراطوراً على أوروبا: «أمّ الملوك». وذلك لأنّ أولادها أصبحوا ملوكاً على دول عديدة في أوروبا. وقد توفيت في سنّ الـ٨٥.

I ـ إخوته:

أ ـ جوزيف: وكان وسيم المنظر كوالده وقد أخذ الكثير عن والدته، الطبع والأخلاق. ولد ١٧٦٨م قبل نابوليون بسنة واحدة، وقد عيّنه نابوليون فيما بعد ملكاً على نابولي سنة ١٨٠٦م ثم ملكاً على أسبانيا من سنة ١٨٠٨م حتى ١٨١٣م. وبعد معركة واترلو ذهب إلى أميركا ثم عاد إلى أوروبا ومات في فلورنسا عام ١٨٤٤م.

ب ـ لوسيان: كان قوياً وديناميكياً للغاية، وكان أحدث إخوته عمراً ولد في أجاكسيو سنة ١٧٧٥م. وقد تولى رئاسة مجلس الجباية وتوفّي في ڤيتربي من أعمال إيطاليا سنة ١٨٤٠م.

ج ـ لويس: ولد في أجاكسيو سنة ١٧٧٨م. وأصبح ملكاً على هولندا من سنة ١٨٠٦ إلى سنة ١٨١٠م. توفي في ليفور سنة ١٨٤٦م وهو والد نابوليون الثالث.

د ـ جيروم: وقد وُلِد سنة ١٧٧٤م في أجاكسيو وأصبح ملكاً على مقاطعة وستڤالي من سنة ١٨٠٧ إلى سنة ١٨١٣م. ثم أصبح حاكماً للأنڤليد سنة ١٨٤٨م ومارشالاً سنة ١٨٥٠م. وقد توفي سنة ١٨٦٠م في فلخنيس بولاية السين والواز.

II ـ أما **الأخوات** فهنَّ :

أ ـ أليزا : ولدت سنة ١٧٧٧م واقترنت بفيليكس باتشيوتشي وتوفيت سنة ١٨٢٠م.

ب ـ بولين : ولدت سنة ١٧٨٠م وتوفيت في فلورنسا سنة ١٨٢٥م. وكانت غاية في الجمال والهيبة والرّقّة، وكانت حديث الناس باستمرار، وقد تزوجت سنة ١٨٠٢ من الجنرال كلارك الذي توفي قبلها.

ج ـ كارولين : ولدت سنة ١٧٨٢م ثم أصبحت ملكة على نابولي وتوفيت في فلورنسا سنة ١٨٣٩م.

هذه هي عائلة نابوليون، ونظرة سريعة عليها تدلّ على أنّ نابوليون كان بمنتهى الإخلاص والعطف على جميع أفراد عائلته، وأنه بقي طيلة أيام حياته يتصرّف معهم ويحميهم ويحضنهم كأنه أب لهم، وهكذا كان موقفه منهم عندما كانوا صغاراً وعندما توفي أبوهم كارل في سنّ الـ٣٨ وتركهم صبياناً وبناتاً في عهدة نابوليون.

هذا مع العلم أنَّ نابوليون تزوّج مرتين: في المرة الأولى تزوّج جوزفين التي كانت أرملة ولم تنجب له أطفالاً فطلّقها وتزوّج مرّة ثانية ماري لويز ابنة ملك بروسيا التي أنجبت له صبياً أصبح فيما بعد وليّاً للعهد.

الفصل الثاني

نابوليون في بدء حياته العسكرية

يُجمِع المؤرّخون على أنّ نابوليون كان متفوّقاً في الدراسة منذ حداثة سنّه، وفي المباراة التي أجريت في باريس سنة ١٧٨٤م كان الأوّل فاختير طالباً للمدرسة الحربية بين جميع زملائه التلامذة، غير أنّ حداثة سنّه في ذلك الوقت منعته من الدخول إلى المدرسة المذكورة.

وحسب الأخبار التي وصلتنا يظهر أنّ نابوليون كان متفوّقاً في الرياضيات، وقد ظهر اهتمامه الشديد بهذه المادة منذ الصغر، وكذلك اهتمامه بسائر المواد العلمية وفيما بعد بدأت اهتماماته تشمل التاريخ والجغرافيا وسائر أنواع المعرفة.

وفي الواقع دخل نابوليون المدرسة الحربية بعد ذلك وبتعيين رسمي من الملك لويس السادس عشر الذي أنهت الثورة الفرنسية حياته على المقصلة فيما بعد. وكانت هذه المدرسة الحربية قد تأسست سنة ١٧٥٠م وخُصّصت بادىء ذي بدء لتعليم أولاد النبلاء والطبقات الأرستقراطية.

وأمضى نابوليون في المدرسة العسكرية سنة واحدة بدل الثلاث سنوات التي كان يمضيها عادةً التلامذة ولا نعرف حتى الآن بالضبط ما هي

الدوافع إلى ذلك وإن كنّا نؤكد أنه لفت أنظار أساتذته بقوة شخصيته وتفوّقه على رفاقه.

وفي السنة ١٧٨٥م التحق نابوليون بلواء المدفعية بعد أن سُمّي ملازماً أولاً إثر تخرّجه من المدرسة الحربية، وكان لواء المدفعيّة مرابطاً في مقاطعة فاوانس في دوفينا التي كانت في ذلك الحين مركز المدفعية الأقرب إلى جزيرة كورسيكا، وطن نابوليون الحقيقي حيث أبصر النور. وفي ذلك الحين لم يتعدَّ راتب هذا الملازم الأول الألف فرنك في السنة، وهذه الكمية المتواضعة من المال لا تؤمن لصاحبها حياة الرفاهية والبذخ والاحتكاك بالطبقات الأرستقراطيّة إذْ كانت تكفي لحاجاته الأساسية من مأكل ومشرب ولباس دون أن يفيض عن هذه الحاجات شيء يُذكر. وكان نابوليون يقضي معظم أوقات فراغه في العزلة والتأمّل والدرس والمطالعة وتثقيف نفسه وسدّ الثغرات التي اكتشفها في مجال المعرفة والعلوم الخاصة به.

وبعد ذلك اطلع نابوليون على بعض مؤلَّفات روسو، ولعلّه قد اطّلع أيضاً على معظم مؤلفات كُتّاب عصر التنوير بمن فيهم ڤولتير وديدرو ومونتسكيو وغيرهم، وأعجب بالأفكار التي برزت في مؤلّفاتهم عن الحرية والعدالة والعقل وخاصة مهاجمة الكنيسة، كما اطّلع على جانب عظيم من تاريخ جزيرة كورسيكا وتاريخ حركة الاستقلال التي قادها الزعيم باؤلي والتي تحمست لها في البدء عائلة نابوليون ثم تركتها لتصالح الفرنسيين الأمر الذي أكسب أباه لقباً نبيلاً منحه إياه الفرنسيون نتيجة تلك المصالحة.

وبعد مدة قصيرة انتقل نابوليون إلى مدينة أجاكسيو في كورسيكا سنة ١٧٨٦م أي إلى المدينة التي وُلد فيها، وذلك لتمضية عطلة الصيف فيها

فاستعاد ذكريات الطفولة ومشى في الطرقات التي عرفهاعندما كان طفلاً وتذكر الرِّفاق والحوانيت والأحياء وجميع الأمكنة التي تركت أثرها في حياته العاطفية.

وقد حصل هذا الأمر بعد حصار طولون الشهير الذي جابه فيه الإنكليز وكسرهم. وهو إنْ لم يكن القائد الأعلى لتلك المجابهة، فقد كان له الدور الأوّل في العمل الإيجابي وتحريك المدفعيّة والإصرار على ضرب الإنكليز وطردهم من مدينة طولون بعد أن كسرهم وهزمهم هزيمة شنعاء. وقد لفت نابوليون أنظار رؤسائه إليه كضابط قوي وجريء، كما أنّه لفت أنظار الجنود ببساطته وجرأته وخططه وشجاعته النادرة، ونتيجة لذلك أعطى الرؤساء لنابوليون سلطة واسعة ففتحت في وجهه آفاق المستقبل.

وهنا بدأت أحلام نابوليون وكأنها قابلة للتحقيق، وبدأ يشعر بقدرته على العمل والنجاح على صعيد الواقع العسكري والاجتماعي.

وإذا كان الجنرال كارتو يحسد نابوليون ويخاف من نجاحه، فإنّ بعض القادة والرؤساء أحسنوا معاملة هذا الضابط الناشيء وقدّروه حقّ التقدير، ولقد طلب دوغومية من لجنة الأمن العام ترقية الضابط بونابرت إلى رتبة «أمير لواء» وبسرعة فائقة استجاب كبار المسؤولين إلى هذا الطلب الذي ورد في نصِّهِ كلام هامّ جداً ومنه:

«كافئوا هذا الشاب وقدّموه. فإذا عاملتموه بنكران الجميل استغنى عنكم وتقدّم من ذاته».

ومثل هذا التعبير يدلّ بصدق على أنّ شخصية نابوليون وقوّته وقدرته وعبقريته كانت واضحة للعيان، وهذا ممّا جلب له التقدير وأثار أحياناً الخوف منه، كما أثار في قلوب البعض الحسد والغيرة والاستعداد لنسج

المؤامرات ضد هذا الضابط الشاب.

ولقد استجاب «نواب الشعب» إلى هذا الطلب الذي قدّمه «دوغومية» بسرعة غريبة فرقّوا نابوليون إلى رتبة «أمير لواء»، وبذلك انضم نابوليون إلى القائد العام دومربيون زعيم البعثة الفرنسية في إيطاليا.

وهنا نلفت النظر إلى أن نابوليون بالرغم من إعجابه بآراء الجمهوريين المتطرّفين، فإنه كان على حذر ودهاء وحكمة عظيمة فلم ينغمس ولم ينضمّ إلى إحدى القوى المتصارعة على الساحة الفرنسية، فلم ينخرط في حزب ولم يؤيّد بشكل واضح تيّاراً على حساب تيّار آخر. وبمعنى آخر لم يتطرّف تطرّف دانتون وروبسبيير، وهذا الموقف هو الذي ساعد نابوليون على النجاح في مهماته المستقبلية في جميع المجالات العسكرية والسياسية.

وبعد مدة وجيزة استدعاه برّاس الذي كان قد استأثر بالسلطة بعد إطاحة روبسبيير وإعدام دانتون، فكلّف بونابرت بصدّ أيّ هجوم أو أيّ مظهر للعنف على المجلس أو الحكومة من قبل الشعب أو من قبل أيّة قوة معادية ولذلك كلّفه بقيادة قوى الأمن الداخلي. وقد أعطى برّاس لنابوليون ثلاث دقائق لقبول هذه المهمة أو رفضها. فقبل نابوليون مُكرهاً بهذه المهمة الجديدة. إذْ لم يجرؤ على الرفض: فمن ناحية كان يكره الفوضى التي أنهكت فرنسا ومن ناحية ثانية كان يخاف من حشود الجيش النمساوي التي تجاوزت الـ١٥٠ ألفاً على حدود فرنسا. فلعلّه إذا قبل هذه المهمة يستطيع أن يعيد النظام إلى البيئة الفرنسية ويحميها من التمزّق، كما أنه يمنع في الوقت ذاته بعض الدول الأوروبية الطامعة من الهجوم على فرنسا وابتلاعها أو احتلال بعض مقاطعاتها.

ولقد قبل نابوليون هذه المهمة الصعبة ولكنه بعد أنْ قرّر قبولها التفت إلى برّاس مخاطباً:

«أيها الجنرال لقد قبلت. ولكن عليك أنْ تعلم أنَّ السيف خارج القِراب ولن أعيده إلاّ متى استتبَّت الأمور».

ولقد شعر نابوليون بأنّ الفوضى وأعمال العنف ومظاهر التمرّد قد ظهرت ملامحها في العاصمة الفرنسية، ولقد بدأت الجماهير تتجمّع في الساحات القريبة والطرقات المتاخمة للمجلس ومركز الحكومة واستعدّ جمهور المشاغبين للهجوم على مركز الحكومة للبدء بأعمال العنف والثورة ومحاولة القيام بانقلاب لزعزعة أركان الحكومة الموجودة والمعترف بها، فما كان من نابوليون الضابط الشاب والمعروف بحزمه وسرعة قراره إلاَّ أنْ أخذ المبادرة، فاستدعى فريقاً من الجيش كان مرابطاً في Sablon وذلك تحسّباً للطوارىء ولما قد يقع أمام المجلس، وكان قائد الخيّالة الشهير Murat مع جيشه الكبير متوجهاً إلى قصر التويلري Tuileries ليصبح بإمرة نابوليون. ولقد وزّع نابوليون فِرق الجيش بحكمة وحذر وبطريقة تحمي قصر الحكومة من أيّ هجوم مفاجىء من قبل المتمرّدين والمشاغبين، وأتت بعد ذلك إمدادات عديدة من الجنود وأصبحت كلّها بقيادة نابوليون الذي استعدَّ لتنفيذ هذه المهمّة الصعبة بكل رباطة جأش.

وهكذا أصبح نابوليون على أتمّ الاستعداد لمواجهة ومجابهة أفواج المتمرِّدين، ومِن أجل نجاح خطته راقب بدقّة تحرّك الثائرين الذي برز على شكل خطّين متوازيين. الصف الأوّل تقدّم إلى منطقة سان روك حيث تصدّى له نابوليون وسحقه وقضى عليه، أما الصف الثاني فقضى عليه Barras بعد أن رآه يتجه إلى القصر الملكي Palais Royal وقد تمّ دحره

نهائياً على يد Barras في شارع ڤولتير، وعند الساعة العاشرة من مساء 13 Vendemiaire وبعد ذلك عاد الهدوء تماماً إلى العاصمة الفرنسية ونجا القصر الملكي كما نجا المجلس والحكومة من ثورة المتمرِّدين.

ونتيجة لهذا العمل العظيم تمَّ انتخاب Barras مديراً عاماً، كما عُيِّن نابوليون حاكماً عسكرياً على باريس. وهكذا استطاع نابوليون أنْ ينجح في مهمته إذْ فرض الهدوء والنظام والأمن على العاصمة الفرنسية. ومن ناحية ثانية فقد استطاع أنْ يستميل الجنود والمواطنين ويجذبهم إليه بتقرّبه منهم ومساعدته إيّاهم، وبنزهاته اليومية والدائمة على ظهر حصانه مخترقاً شوارع باريس حتى اعتاد السكان على رؤيته ومحبّته واحترامه مظهرين له كلّ تقدير وإعجاب.

ويظهر أنّ نابوليون استطاع أن يواسي شعبه المسكين والفقير والجائع والمنهوك القوى نتيجة الثورة والمجازر الفظيعة التي وقعت في العاصمة الفرنسية وضواحيها وخاصة أيّام دانتون وروبسبيير، وكان مسكن نابوليون في مبنى خاص بالفوج السابع عشر في شارع الكبوشيين Capucuns.

وقبل هذه المرحلة بوقت قصير تعرّف نابوليون على السيدة جوزفين، وقد رآها أوّل مرّة عند السيدة تاليان التي كانت عشيقة لـ Barras، ويظهر أنّ جوزفين كانت على غاية عْظيمة من الجمال والأناقة والأنوثة مِما أوقع الضابط الشاب في حبِّها. والحقيقة أنّ جوزفين كانت أرملة لرئيس المجلس التشريعي في باريس والذي قُطع رأسه بالمقصلة أيّام الثورة وبعد ذلك أصبحت جوزفين صديقة لعدد كبير من الرجال المعروفين في ذلك العصر. غير أنّ بساطة نابوليون وطيبة قلبه وعدم خبرته في الحياة جعلته يعشق جوزفين بسرعة فلقد ظنّ أنها امرأة نبيلة

وجديرة به فتعلّق بها مع إحساسه الدائم بأنه أدنى منها رتبة من ناحية العائلة والطبقة الاجتماعية والوضع الاقتصادي.

حاول نابوليون الزواج منها وكانت في الواقع أُمّاً لولدين، وكانت تكبره بست سنوات على الأقلّ، وكان Barras يضغط بكلّ وسائله وعلى طريقته ليمهِّد الطريق أمام نابوليون للزواج من جوزفين. ولقد حاول Barras إقناع جوزفين بقبول نابوليون زوجاً لها فقد قال عنه أمامها «إنّ هذا الرجل القصير لا بُدَّ أنْ يصبح كبيراً جداً حتى يُشار إليه بالبنان».

وزيادة على هذه الأمور فقد بدأت الحكومة الفرنسية تفكِّر بإرسال نابوليون قائداً على حملة عسكرية توجّهها إلى إيطاليا لمحاربة النمسا، وقد ظنّ بعض المؤرخين أنّ قيادة نابوليون الشاب للحملة الفرنسية على إيطاليا هي نوْع من المهر يقدّمه Barras والحكومة الفرنسية لجوزفين نتيجة قبولها بنابوليون زوجاً لها.

الحملة على إيطاليا

في السنة ١٧٩٦ وفي السابع والعشرين من آذار أصبح نابوليون قائداً للجيش الذي زحف على إيطاليا وذلك لمحاربة النمسا، كما أنّ جوزفين أصبحت بشكل رسمي زوجةً للضابط الشاب نابوليون.

ذهب نابوليون إلى مرسيليا حيث ودّع أُمَّه وإخوته، وقد أمضى قبل ذلك وبعد ذلك أوقات فراغه بدراسة الخرائط العائدة لإيطاليا وسائر مقاطعاتها ومواقع الجيش النمساوي والأمكنة التي ينتظر أن تقع فيها المعارك الحاسمة، ثم اتجه نابوليون إلى مدينة Nice حيث تولى القيادة ولم يكن عمره يتجاوز الـ٢٧ سنة. ولقد استطاع هذا القائد الشاب أن يُعيد للجيش ثقته بنفسه ويجعله ينسى أو يتخطّى فقره وبؤسه وحرمانه. ولقد وجّه إليه كلمة هامّة حرّكت مشاعر الجيش فيها وألهب حماسه من موقع قيادته فجعله على أتمّ الاستعداد لمقابلة العدوّ النمساوي في إيطاليا. ويظهر حسب قوْل معظم المؤرّخين أنّ عدد جيشه لم يتجاوز الخمس والأربعين ألفاً وأنّ أسلحته لم تكن مناسبة مع هذا العدد.

ولقد نجح نابوليون في المهمة الموكلة إليه فقهر الجيش النمساوي في «مونتينوتو» ثمّ في ديبيغو بين ١٢ و١٤ نيسان ١٧٩٦م. كما أنه دمَّر الجيش البيامونتي في ميليسيمو. وبعد ذلك أجبر ملك سردينيا على توقيع

الهدنة في شيراسكو وفي هذه المرحلة كلها بدأ نبوغ نابوليون العسكري يظهر كقائد مخطّط ومنفّذ في الوقت ذاته.

وقد تابع نابوليون على مراحل عديدة حملته الشهيرة على إيطاليا والتي يعود لها الفضل في إعطائه الشهرة العسكرية في القيادة والتخطيط. وكان نابوليون قد وجّه كلمة للإيطاليين يطلب فيها منهم الثقة بالجيش الفرنسي والتعاون معه لكسر أطواق السلاسل التي كبّلته طويلاً؛ هذا مع تأكيده التام لهم باحترامه لعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم وتعهّده بعدم الإساءة إليها. وقد أكّد لهم مراراً أنّ حملته على إيطاليا كان الهدف منها تحطيم قوّة الجيش الذي استعبد هذه البلاد الجميلة وأذلّ شعبها.

وبعد ذلك تصدّى القائد الفرنسي للنمساويين على جسر «لودي» فكسرهم في التاسع من شهر أيار ١٧٩٧م، وأخرجهم كلياً من مقاطعة لمبارديا. وهنا بدأت مؤامرات الحسد في فرنسا ذاتها تتكاثر وتُحاك ضدّ نابوليون لإضعافه عسكرياً وسياسياً وقد طلبت السلطة الحاكمة آنذاك من نابوليون أن يقسّم الجيش الفرنسي الموجود في إيطاليا مع قائد آخر فيتولّى كلّ منهما قيادة قسم واحد، وهذا القائد الآخر هو بلا شكّ كاللّيرمان.

وهنا غضب نابوليون متأثراً من هذا الخبر فهدّد بالإستقالة ورفض طلب الحكومة جملةً وتفصيلاً.

ولمّا دخل ميلانو كان الشعب يحيط به من كلّ ناحية ويصفّق له ويهتف باسمه، بينما كان القائد المنتصر يركب جواده ويتقدّم بين جنوده في مظهر عظيم من النصر والمجد، ولم يلبث نابوليون أن أمر جيشه بجمع أهمّ التحف والمخطوطات واللوحات والتماثيل وما شابه من الأشياء الثمينة لنقلها فيما بعد إلى متاحِف العاصمة باريس.

أما الجنرال النمساوي بُوليو فقد جمع فرقته النمساوية وأعدّها وحضّرها تحضيراً كاملاً لمقابلة نابوليون كي يثأر لهزيمته في «لودي»، غير أنّ هذا القائد النمساوي عاد فانهزم مرّة ثانية على يد نابوليون، فهرب جنوده النمساويون وتفرّقوا في جهات عديدة وقد أرسل نابوليون قائده أوغورو لمطاردة فلول النمساويين في مانتو الموجودة في المناطق المنيعة من إيطاليا الشمالية. وكان أحد قوّاد نابوليون مسّينا قد أغار على ڤيرون Veron ونابوليون على بولينو وبلليفرون والتي أصبحت فيما بعد سبباً لتحرير كورسيكا. وعندها طلب ملك نابولي توقيع معاهدة سلام مع نابوليون فضعفت البندقية Venise وأصبحت في كل لحظة مهدَّدة بالسقوط.

ولم يكد الجيش الفرنسي ينعم بالراحة قليلاً حتى بدأ بالتصدّي لجيشٍ نمساويٍّ كبير يتعدّى الستّين ألفاً وبقيادة القائد العجوز ألفونزي. فسار نابوليون في مقدمة جيشه محاطاً بقوّاده ومعاونيه وكسر الجيش النمساوي الكبير شرَّ كسرة في بطاح الريڤولي. ولا ننسى أيضاً أنّ نابوليون قد أحرز انتصاراً عظيماً على الجيش النمساوي في معركة أركول حيث برزت مزايا نابوليون العسكرية والقيادية بشكل هائل وحيث زاد تعلّق الجيش به إلى أبعد الحدود.

حاول البابا التدخل ضدَّ نابوليون ولصالح النمساويين فتصدَّى له نابوليون وكسر جيشه وأجبره على توقيع معاهدة تولينتينو في ١٩ شباط من السنة ذاتها، وهكذا تنازل البابا عن أڤينيون وروماني وأنكون وقبل أن يدفع مبلغ ثلاثين مليون، كما تنازل عن مجموعة كبيرة من الأدوات الثمينة والتحف التي كان يملكها الڤاتيكان.

ويبدو أنّ النمسا لم تقطع الأمل بالسيطرة من جديد على إيطاليا أو بعض مقاطعاتها، فجهّزت جيشاً كبيراً وأرسلته من مرتفعات تيرول بقيادة الأرشديق شارل، فما كان من نابوليون إلاّ أن قابله بجرأة بمساعدة قوّاده الكبار من أمثال مسّينا وجوبير وحطّم الجيش النمساوي في ممر البياف Piaf والتغليمانتو وأرغمه بالقوة على التراجع نحو طريق ڤيينا. ولم يمضِ وقت طويل حتى وقّع الأمبراطور النمساوي معاهدة السلام مع نابوليون في ١٨ نيسان ١٧٩٧م وبذلك أصبحت سلطة نابوليون مطلقة في إيطاليا بل وفي أوروبا جمعاء.

وفي هذه الأثناء حصل في فرنسا وفي باريس بالذات ما يشبه الانقلاب، فقد استطاع Barras قلْب نظام الحكم وكان نابوليون قد أرسل لمساعدته أحد أشرس قوّاده، أوغيرو. وقد اعتقل برّاس Barras على ما يزيد عن خمسين عضواً من مجلس النواب ونحو مائة من الكُتّاب والصحافيين.

وفي هذه الأثناء وقّع نابوليون معاهدة جديدة مع النمسا وهي معاهدة كامبورفورميو. وحيث أنّ الحكومة النمساوية قد ناورت وماطلت كثيراً قبل أن تحزم قرارها حول المعاهدة، فقد قال نابوليون لممثّل حكومة النمسا: «قبل الشتاء سأحطّم نظامكم الملكي كما يتحطّم هذا الوعاء الخزفي».

وبعد ذلك بقليل عاد نابوليون إلى باريس في الخامس من كانون الأول سنة ١٧٩٧م. في جوٍّ من الاحترام والإعجاب وفي جوٍّ أيضاً من الحذر والشكوك.

ويظهر أنّ الشعب كان يقدّر نابوليون ويقدّر انتصاراته، ولذلك أينما سار نابوليون كان الشعب يستقبله بالهتاف والتصفيق ودويّ المدافع

والأصوات المتعالية «يحيى بونابرت». ولم يؤثّر هذا المجد العظيم في طبيعة القائد البسيطة والقاسية والحازمة والمفكّرة والمتفحّصة للأمور بدقّة وحذر.

إنّ جميع الأحزاب والتيّارات والفئات والطبقات تطلب مساعدة نابوليون وتحاوِل كسْب رضاه: الجمهوريون واليعقوبيون والملكيون والجميع يسيرون وراءه ويخضعون لسلطته المطلقة.

وكان شاتوبريان أعظم كُتّاب عصره ضدّ نابوليون وكذلك الأديبة مدام دي ستال. ومع ذلك فقد حاول نابوليون الانفتاح على العلوم والآداب فحاور ماري شينييه في الشعر ودونو في القانون ولاغرانج في الرياضيات ولابلاس في علم الفلك الخ...

ويروي بعض المؤرخين أنّه في إحدى المرّات حاولت مدام دي ستال إيقاع هذا القائد الكبير في حبائلها فوجّهت إليه السؤال التالي:

ما هي أفضل امرأة برأيك؟؟

فأجاب نابوليون:

«هي المرأة التي تنجب أكثر عدد من الأولاد».

ومثل هذا الجواب كان كافياً لجرح شعورها ولزيادة سخطها وعدائها لنابوليون.

ولطالما حاول نابوليون تحطيم إنكلترا التي كانت تفرض سيطرتها على البحار والتي عجزت كلّ أوروبا عن مزاحمتها في هذا المجال فكان حلمه الدائم التغلّب على إنكلترا بشتّى الوسائل، وإنكلترا موجودة في أوروبا وفي البحر المتوسط وفي مصر وفي الهند وتسيطر على معظم طرق

الملاحة والتجارة في العالم. وإنكلترا هي التي قاومت الثورة الفرنسية ودافعت عن الملكية في فرنسا وهي التي لا تزال تنعم بنظام ملكي مقدّس وتقاليد ثابتة منذ عهود طويلة. ومن هنا نشأت عند نابوليون فكرة ضرب إنكلترا واحتلال مصر ثمّ محاولة الوصول إلى الهند. فهل كان نابوليون يحلم أن يُعيد أو أن يقلّد الإسكندر الكبير الذي اجتاح العالم ووصل إلى الهند، أم هل كان يحاول التشبّه بيوليوس قيصر الذي اجتاح بلاد الغال ومصر وأفريقيا؟؟

وعلينا ألاّ ننسى أنّ الأربع سنوات والنصف التي قضاها نابوليون في القنصليّة أي من تاريخ ٢ تشرين الثاني ١٧٩٩م إلى أواخر أيار ١٨٠٤م كانت حياة رخاء بالنسبة لفرنسا، فقد استطاع هذا القنصل حقْن الدِّماء وتجديد شباب فرنسا التي أنهكتها الثورة والخلافات الحزبيّة ومزّقتها الخلافات داخل الثورة وخارجها. وقد قام بونابرت ببعض التنظيمات السياسية الجديدة والإصلاحات الإدارية والتي ساعدت بشكل ما على تحسين الاقتصاد القومي بعد أن كان قد وصل إلى الحضيض، وبذلك أصبحت سمعة فرنسا في الخارج مقرونة بالبطولة والنصر والمجد والقوة نتيجة التفوّق العسكري لنابوليون في حروبه.

وبعد البطالة والبؤس وتعطيل المرافىء واليأس الذي اجتاح الفكر والمفكّرين في فرنسا، بدأت ملامح أمل بمستقبل أفضل تلوح في أفق الحياة الفرنسية. كلّ ذلك اعتماداً على عبقرية بونابرت في الحروب وفي إدارة الدولة والسياسة والشعب معاً. وفي الواقع أخذ بونابرت بيد من حديد كلّ السلطات التشريعية وأسّس دستوراً جديداً أصبح فيما بعد أساساً للجمهورية وقد تعاون في ذلك مع قنصلين آخرين هما كامبريس ولوبرين.

وقد أصدر بونابرت أوراقاً نقدية جديدة بعد أن أسس مصرف فرنسا الذي لا يزال يمارس مهماته حتى اليوم، كما أنه حاول تعزيز الثقافة والمعاهد والكليّات.

وقد استطاعت حكومة بونابرت في هذه الفترة صهر الأحزاب كلّها في وحدة جديدة وكان من أبرز رجالها تالليران الذي أصبح وزيراً للعلاقات الخارجية وفوشيه الذي صار وزيراً للشرطة والأمن. غير أنّ هذين الرَّجلين لم يخلصا تماماً لبونابرت فقد كانا يحيكان المؤامرات والدسائس عليه ولكنه أبقاهما في مركزيهما لقناعته التامة بكفاءتهما.

ويظهر أنّ تالليران كان في الأساس أسقف أوتان عام ١٧٨٩م ثم جحد الكنيسة والملك والله وانغمس في الملذّات وقد وصل إلى وزارة العلاقات الخارجية بمساعدة Barras ومدام دي ستال، أمّا فوشيه فكان حديث البورجوازيّة وكان متديّناً إلى حدٍّ ما وقد نجح في دفع روبسبيير إلى المقصلة وقد تخلّص منه حفاظاً على حياته. وكانت مزاياه تجعله يستحق أن يصبح وأن يبقى دائماً قائداً للشرطة فقد كان جريئاً وحذراً وبعيد النظر وسريع الحركة والقرار. .الخ.

لقد شعر بونابرت مِراراً أنّ النمسا وإنكلترا لا تزالان تحيكان الدسائس وتهدّدان السلام في أوروبا كلّها، كما وجد أنّ روسيا تتنكّر باستمرار للمعاهدات التي وقعتها ولذلك قرّر القنصل الأول إعلان الحرب على أعدائه وكان قد عرض المعاهدة عليهم فرفضوها، ولما كتب إلى ملك إنكلترا يطالبه فيها بإحلال السلام في أوروبا كلّها كان جواب رئيس الحكومة البريطانية بت Bett على رسالة نابوليون بأنْ طلب منح جميع السلطات في فرنسا لشقيق الملك لويس ١٦. وقد حذت

النمسا حذو بريطانيا في هذا المجال.

ولقد بدأت النمسا بإبراز قوتها العسكرية على مشارف ستراسبورغ وفي ضواحي نيس Nice فما كان من بونابرت إلاّ أن انتدب أحد كبار قوّاده مورو وجعله على رأس مائة ألف جندي وأرسله للتصدّي للنمساويين، ومن ناحية ثانية بعث بالقائد مسّينا باتجاه إيطاليا بينما بدأ هو بجمع جيشه واتجه إلى سفوح جبال الألب. لقد اعتمد بونابرت على عنصر المفاجأة فاجتاز جبال الألب من جهة ممر سانت برنارد فواجه صعوبات كثيرة في هذا الممرّ الضيّق فوق الصخور الشاهقة والمنحدرة وفي خطر البرد والانهيارات الثلجية وأرغم جيشه بكامل معدّاته وعدده على سلك هذه الطريق الوعرة، وقبل أن ينتبه العدوّ فاجأه بونابرت وضربه وكسره وبذلك استطاع بسهولة دخول مدينة ميلانو ولمّا انتبه القائد العدوّ ميلاس لما فعله بونابرت به وشعر بأنه انعزل تماماً عن مساعديه، قرّر الهجوم لمواجهة بونابرت فما كان من القنصل الأول (بونابرت) إلاّ أن كسره وقهره في سهل مانغو بالرّغم من أن قوّته لم تزد عن ٢٥ ألف جندي فرنسي بينما زادت قوّة العدو على ٧٧ ألف جندي نمساوي، وقد يكون الفضل في هذا النصر للقائد المساعد لبونابرت Dessex الذي فصله بونابرت ثم عاد فاستدعاه وقد دخل Dessex المعركة بعد أن أوشك بونابرت أن يخسرها. وبدخول Dessex المعركة انتزع بونابرت النصر من يد النمساويين ولكنه من المؤسف أن يموت القائد الشاب Dessex ساعة دخوله المعركة، وقد قُتِل، وقد حزِن عليه بونابرت ورثاه لأنه كان وراء انتصاره على النمساويين. وبعد ذلك أوكل بونابرت قيادة الجيش إلى قائده مسّينا وأسرع في العودة إلى باريس حيث استقبله الشعب في التهليل والترحاب.

غير أنّ انتصارات بونابرت العديدة في إيطاليا لم تكن كافية لفرض السلام على أوروبا، فقامت إنكلترا بمساعدة النمسا وقدّمت لها منحة مالية تقدّر بنحو مليونين وخمسمائة ألف من الليرات الإسترلينية لتساعدها على رفض المعاهدة التي حاول بونابرت فرضها عليها بالقوة، وكذلك فإنّ ألمانيا قامت تعلن الحرب على بونابرت فواجهها أحد قوّاد بونابرت، مورو وتمكّن من إخضاع الأرشيدوق جان ڤيهوهندلن، وبعد ذلك تقدّم مورو حتّى وصلت قواته إلى جهات ستراسبورغ ولينز فخافت ڤيينّا كثيراً بينما تقدّم أوبرو واحتلّ بوهيميا، وماغدولند استطاع الاستيلاء على التيرول وبذلك لم يبق أمام الأمبراطور فرانسوا سوى التفاوض مباشرة مع فرنسا وهكذا وقعت النمسا المعاهدة في ٩ شباط ١٨٠١م. (معاهدة لونيڤيل) وبذلك سيطرت فرنسا على إيطاليا وعلى الأديج.

ولكنّ الانتصار والتفوّق والمجد وسائر المزايا التي انتزعت التصفيق وإعجاب الشعب الفرنسي بعبقرية بونابرت لم تكن كافية لمنع الدسائس والمؤامرات، بل على العكس تماماً، فإنّ الحسد والغيرة والدسائس وروح الانتقام قد اشتعلت في قلوب أخصام بونابرت الذين حاولوا التخلّص منه وبشتّى الوسائل. وفي ٢٤ كانون الأول سنة ١٨٠٠م وضع المتآمرون قنبلة في طريق بونابرت عندما كان ذاهباً إلى الأوبرا وقد نجا بأعجوبة، أمّا الضحايا فكانوا كثيرين إذْ زاد عدد القتلى على العشرين والجرحى على الخمسين، وبعد ذلك وجّه بونابرت إصبع الاتهام إلى اليعقوبيين فقاصصهم وانتقم منهم.

وبعد مؤتمر الكونكورد أمّم بونابرت أملاك الكنيسة وبذلك أصبحت مُلْكاً للدولة وأصبح الأساقفة والكهنة يتقاضون رواتبهم من الدولة. كما أنّ تعيين الأساقفة لا يكون رسمياً وقانونياً إلاّ بعد موافقة الدولة. وبذلك

أخضع بونابرت الكنيسة لسلطة الدولة بعد أن كانت الدولة والشعب خاضعة لسلطة الكنيسة والڤاتيكان طوال القرون الوسطى. ثم وقعت بعد ذلك عدّة معاهدات بين فرنسا وروسيا إذْ وقّع جوزف بونابرت شقيق بونابرت معاهدة صلح مع القيصر الروسي سنة ١٨٠٨م. وعلى أثرها بدأ السلام يخيِّم على أوروبا وقد اعترفت إنكلترا رسمياً بالجمهورية الفرنسية.

ولعلّ أكبر مكافأة حصل عليها بونابرت في هذه المرحلة، عدا عن حماس الشعب وتقديره له، هو تعيين مجلس الشيوخ لبونابرت قنصلاً مدى الحياة وقد حصل ذلك سنة ١٨٠٢م. وفي هذه السنة ذاتها أسس بونابرت جوقة الشرف وضاعف الميزانية وشجّع على الزراعة وبعث الحياة من جديد في الدولة ومرافقها.

وعادت إنكلترا لتطالب من جديد بجزيرة مالطا التي كانت قد تنازلت عنها في معاهدة أميان وهدَّدت بالحرب من جديد وشعر بونابرت بقوة بريطانيا البحرية وضُعْف أسطوله الفرنسي، وقد تنازل عن مقاطعة لويزيانا مقابل ٥٤ مليوناً وحشد الجيش والسفن والبوارج في المرافىء استعداداً لغزو إنكلترا. وكان هذا الحشد مركّزاً بصورة خاصة في بولونيا حيث تحوّلت كل المنطقة إلى ما يشبه ساحة حرب، وكان يحلم بمساعدة هولندا وأسبانيا ونابولي في مهمته العسكرية والبحرية ضدّ إنكلترا. وفي هذه الأثناء أرسلت بريطانيا بعض المتآمرين لقتل بونابرت بقيادة كادودال الذي فشل في مهمته وقُطِع رأسه على المقصلة هو وأعوانه من الفرنسيين.

الحملة على مصر

إذا كانت قيادة نابوليون في الحملة على إيطاليا بمثابة المهر الذي قدّمه Barras لجوزفين للقبول بنابوليون كزوج لها لأنها كانت تعتبر هذا الضابط الصغير أقلّ رتبة اجتماعية من رُتبة عائلتها، وإذا كان نجاح نابوليون في حملته الأولى والثانية على إيطاليا وفي معارك عديدة كمعارك أركول وريڤولي ولودي وغيرها، قد أعطته كسباً عسكرياً واجتماعياً وسياسياً عظيماً وساعدته للتقدّم بسرعة إلى رتبة قنصل، فكل ذلك لم يمنعه أبداً ولم يردعه عن التفكير بضرب إنكلترا في عُقر دارها أو على الأقل في مستعمراتها بعد أن لاحظ مؤامراتها المتعدِّدة عليه شخصياً وعلى فرنسا وسيطرتها على أوروبا بواسطة أساطيلها العسكرية والتجارية، وكذلك كان غزو مصر حلماً هاماً من أحلام نابوليون. وقد اعترف أيضاً بأنه فكّر بغزو الهند وبدأ عملياً هو ورجاله من قوّاد وبحّارة لتحضير الحملة على مصر.

لقد أقلع أسطول نابوليون من مرفأ طولون وكان نابوليون على سفينة سميت الشرق L'orient. لقد اصطحب نابوليون معه عدداً كبيراً من العلماء ورجال الفكر والرياضيين، فكانت حملته بذلك عسكرية وثقافية معاً. وحسب قول المؤرِّخين كان هذا الأسطول الفرنسي المتجه إلى مصر يتألف مِن ثلاث عشرة سفينة وأربع عشرة بارجة وثلاثماية عمارة بحرية شاحنة (مؤن وذخائر).

ومن حُسْن الحظ أنّ هذا الأسطول الفرنسي نجا عدّة مرّات بأعجوبة نادرة من مراقبة الأسطول الإنكليزي الذي كان برئاسة الأميرال نلسون Nelson، وكان الأسطول الإنكليزي من النواحي العسكرية يشكّل خطراً دائماً لقوته ومناعته وتدريب رجاله وضخامة مدافعه على الأسطول الفرنسي وعلى سائر الأساطيل الأوروبية. ولقد استطاع نابوليون وهو في طريقه إلى مصر احتلال جزيرة مالطة ولم يتركها إلاّ بعد أن رفع العلم الفرنسي عليها ووضع حامية فرنسية فيها، وبعد ذلك تابع رحلته باتجاه الإسكندرية التي وصل إليها بتسهولة تامة، أمّا أسطوله الفرنسي فقد رسا في مرفأ أبي قير، ويظهر أنّ نابوليون حسب زعم الرواة قد خطب في أهالي الإسكندرية مطمئناً إياهم بأنه جاء للتعاون معهم لا لإزعاجهم أو تخريب مدينتهم، لقد أُعجب الشعب المصري بشخصية وشجاعة ومنطق هذا القائد الغريب، وفي الطريق إلى القاهرة اصطدم الجيش الفرنسي بجيش المماليك في منطقة عُرفت عند الأقدمين باسم شبرا وكان انتصار نابوليون على المماليك ساحقاً، ثم تابع القائد الفرنسي سيره حتى وقف قرب الأهرام في منطقة الجيزة وغرب القاهرة، ويقول بعض المؤرخين إنّ نابوليون ارتجل خطاباً أمام الأهرامات ووجّهه إلى الجيش حيث قال فيه:

«أيها الجنود من أعلى هذه الأهرامات أربعون قرناً من التاريخ تراقبكم...» ثم كانت المعركة الشهيرة والمعروفة باسم معركة الأهرام حيث سحق نابوليون المماليك. ويظهر أنّ خسارة المماليك كانت فادحة جداً بالنسبة لخسارة الفرنسيين التي كانت طفيفة للغاية. غير أنّ نشوة الانتصار لم تدم طويلاً لا في نفس نابوليون ولا في صفوف جيشه لأنّ الخبر السيّء قد جاء فوْراً من جهات الإِسكندرية ومفاده أنّ الأميرال نلسون

وصل بأسطوله إلى مرفأ أبي قير ودمّر الأسطول الفرنسي الراسي فيه تدميراً كاملاً. وهذا ما جعل الجيش الفرنسي يشعر وكأنه معزول تماماً عن وطنه فرنسا بعد خسارة الأسطول الذي استشهد فيه أكثر من ستة آلاف بحري فرنسي بمن فيهم القائد الأميرال برويس الذي رفض مغادرة بارجته قائلاً:

«على الرئيس أن يموت وهو يُصدر الأوامر. .» وكي يمتصّ نابوليون نقمة الجيش ويُنسيه يأسه وعزلته شرع في بناء التحصينات وفي الإهتمام بالزراعة والإفادة من خصب وادي النيل، كما أنه في الوقت ذاته أعطى الأوامر للعلماء بدراسة وتصوير الآثار المصرية وكلّ ما يتعلّق بحضارة مصر القديمة، وهكذا بدأت دراسة الحضارة المصرية في العصور الحديثة بشكل علمي بدْءاً من حملة نابوليون. فلا عجب بعد ذلك إذا اقترنت علوم الآثار المصرية باسم نابوليون وذكر حملته على مصر.

وقد أرسل نابوليون في ذلك الحين، أحد قوّاده الكبار مع فرقة من الجيش لمتابعة فتح أعالي مصر وإخضاع بقية أجزاء وادي النيل، ويعود الفضل إلى نابوليون في إنشاء المحاكم والصحف والمطابع والمطاحن والشركات والأفران وسائر المظاهر العمرانية للحياة الاجتماعية، وعلينا ألاّ ننسى أنّ نابوليون هو الذي أسس المعهد المعروف باسم «معهد مصر» وبرئاسة مونج وذلك لتدريس الرياضيات والفيزياء وعلم الفلك والإقتصاد والأدب والسياسة الخ. . . وبعد ذلك انكبَّ العلماء الذين اصطحبهم نابوليون على دراسة الحيوانات في وادي النيل والنباتات والمعادن ودرسوا الجغرافيا والتاريخ، كما وضعوا معجماً عربياً، وزيادة على ذلك، فقد جالس نابوليون علماء الدين والفقه وحاورهم حوْل مفاهيم الدين والإسلام والتقاليد والعادات الموجودة في البيئة، كما وعد المصريين بتخليصهم من ظلم المماليك. ولذلك أحبّه المصريون وأخلصوا له ووثقوا بأقواله، غير

أنّ بعض الزعماء المحليين من المصريين والمسلمين بدأوا بالتنكّر والتآمر على نابوليون نتيجة مراسلات ووعود من الأتراك والإنكليز وغيرهم ممن كانوا يحاربون نابوليون والدولة الفرنسية.

وبعد أن حشد الأتراك جيشهم في سورية للتوجه إلى مصر وطرد الجيوش الفرنسية المرابطة فيها، وبعد أن حضَّروا خطة للهجوم على نابوليون ورجاله فكّر نابوليون بالتصدِّي لهم وقطع طريق الهند عليهم فترك مصر واتجه بجيشه إلى العريش ثم غزّة ويافا وكسر الأتراك وقتل منهم نحو ألفين وأسر نحو ثلاثة آلاف ثم عاد فأعدم الثلاثة آلاف الأسرى بحجة النّقص في المؤن والغذاء، وهكذا لم يعطِ نابوليون للأتراك والإنكليز فرصة مهاجمته في مصر بل تصدَّى لهم في سورية وفلسطين فلما وصل نابوليون إلى عكّا حاصرها بضعة أشهر فلم يستطع فتحها وكان الإنكليز قد زادوا من مناعتها إذ ساعدوا أحمد باشا الجزّار في تحصينها وتزويدها بالمؤن والسلاح لجهة البحر، ولما شعر نابوليون أنّ مرض الطاعون بدأ يفتك بجيشه أعطى أمر الانسحاب والعودة باتجاه مصر، فمشى في الصحراء الحارَّة تحت رحمة الظمأ والحرّ، وعانى جيشه ما عانى في ذلك الطريق الصعب والمجدب، وهنا عرف نابوليون أهمية فشله في حصار عكّا ومدى انعكاس هذا الفشل على حياته العسكرية والسياسية فقال:

«إنّ حبّة رمال واحدة قد أوقفت تقدُّمي وأسقطت مجدي. ولو فتحت عكا أبوابها لي لكنت وجّهت التاريخ كما أشاء أنا».

وما كان نابوليون يصل إلى مصر طلباً للهدوء والراحة حتى فوجىء بخبر جديد أتاه من الشمال أيضاً، وخلاصة هذا الخبر أنّ جيشاً كبيراً من المماليك قد نزل بالقرب من مرفأ أبي قير وبدأ بالاتجاه إلى القاهرة. فأسرع

نابوليون للقاء هذا الجيش قبل أن يعطيه فرصة التغلغل في مصر، ولمّا التقى الجيشان كانت المعركة ضارية وحاسمة، فقد سحق نابوليون جيش العدو بكامله تقريباً، وأطلق على هذه المعركة اسم أبي قير وذلك كي يمحو ذكر الكارثة البحرية التي حلّت بأسطوله في مرفأ أبي قير على يد نلسون.

ولا ننسى أنّ انتصار نابوليون في معركة أبي قير البريّة كان مشرّفاً للغاية لدرجة أنّ قوّاده أُعجبوا به ولم يتمالك القائد كليبر من أن يقول لنابوليون ساعة الإنتصار:

«أيها القائد إنك كبير كالعالم»، ومن المؤسف أنه في هذه الأثناء وصلت أخبار سيئة إلى نابوليون وإلى الجيش الفرنسي فلقد كثرت المؤامرات داخل فرنسا وخارجها مما جعل نابوليون يخاف على بلاده وعلى نفوذه فما كان منه إلاّ أن سلّم قيادة الجيش إلى أحد كبار قوّاده كليبر ورجع في السنة ذاتها وفي الـ ٢٢ من شهر آب إلى فرنسا.

مع عودة نابوليون إلى فرنسا، بدأت حملة التطهير فلقد ضرب نابوليون بيد من حديد على المتآمرين، وكما أعدم كادوديل ورفاقه عاد فأعدم الدوق آنغيان وهو أحد أحفاد الكونديين متهماً إياه بالتآمر عليه وعلى فرنسا وعاملاً لمصلحة الملك والملكيين، وفي هذه المرحلة بالذات بُديء التحضير لرفع نابوليون من مستوى قنصل إلى مستوى أمبراطور. نابوليون هو أمبراطور الجمهورية الفرنسية، وقبل أن ينصّب نفسه أمبراطوراً بشكل رسمي استشار قوّاده الكبار ومعاونيه، كما أنه أرسل إلى روسيا وفرنسا وإنكلترا والنمسا يستشيرها ليضمن اعترافها به كأمبراطور على فرنسا فكانت الأجوبة إيجابية ومشجّعة للغاية وهذا ما حصل سنة ١٨٠٤م. ولقد اجتمع

في الـ٢٨ من أيار مجلس الشيوخ بكامله واتجه إلى سان كلود ليقدّم التهاني للأمبراطور الجديد فاستقبلهم نابوليون وجوزفين بمنتهى اللياقة واللطف وعند ذلك ناداه تامبريس بلقب «السيّد العظيم».

أما تنصيب نابوليون أمبراطوراً فكان يوماً تاريخياً لفرنسا، فقد تمّ ذلك في كاتدرائية نوتردام في باريس، وكانت المدافع تدوّي وبدلاً من أن يذهب نابوليون إلى الفاتيكان ليتوّجه البابا، فقد استدعى البابا إلى باريس، وسار موكب نابوليون بين مظاهر الفرح والحفاوة والمواكبة، وأثناء حفلة التتويج أخذ نابوليون التاج ووضعه بيده على رأسه. وبعد ذلك أعلن نفسه أمبراطوراً على فرنسا وميلانو وإيطاليا وعدّة مقاطعات معاً، وهكذا بدأ نابوليون يشعر عملياً بسيطرته على أوروبا، وبتنصيب إخوته ملوكاً على بعض الدول فيها.

التفكير بغزو إنكلترا

شعر نابوليون أنّ السِّلْم الذي طالما حاول فرضه بالقوة على كل أوروبا لن يتمّ إذا بقيت إنكلترا قوية بنفوذها التجاري والعسكري، وفي الواقع كانت إنكلترا تتدخل اقتصادياً بشؤون معظم الدول الأوروبية، كما أنّ أسطولها العسكري كان يسيطر على معظم البحار مؤمِّناً لأسطولها التجاري الإبحار إلى جميع أنحاء المعمورة. ولذلك فكّر الأمبراطور الفرنسي بغزو الجزر البريطانية، فما كان منه إلاّ أن جمع في شمال فرنسا وخاصة في منطقة بولونيا جيشاً عظيماً يقرب عدده من مائة وعشرين ألف جندي هذا زيادة عن نحو ثلاثماية زورق مراقبة وقد كتب يقول:

«إنّ هؤلاء الجنود الفرنسيين سيرفعون العلم الأمبراطوري فوق برج لندن».

وفي هذه الأثناء كانت جيوش نابوليون تنتظر وصول أسطول أميرال طولون «لاتوش تريڤيل» للتحضير للمعركة البحرية المقبلة مع بريطانيا في بحر المانش، وكان الأسطول الإنكليزي بقيادة الأميرال نلسون مرابطاً بالقرب من كاديس، ويظهر أنّ الأسطول الإنكليزي كان أكثر تدريباً وأكثر تجهيزاً وأكثر مناعة من النواحي العسكرية من الأسطول الفرنسي، كما أنّ عدد بوارجه المقاتلة وذات المدافع الكثيرة

والثقيلة كانت أكبر وأكثر عدداً من البوارج الفرنسية.

وعرف الأمبراطور الفرنسي أنّ المعركة إذا حصلت فستكون حاسمة في بحر المانش وخاصة في منطقة القنال الإنكليزي، ولذلك قال لمن حوله:

«إذا استطعنا أن نكون سادة المضيق ست ساعات فسنصبح سادة العالم».

وبعد ذلك راح نابوليون يلهب الحماس في قلوب جنوده ويوزّع عليهم الأوسمة ويرفع من معنوياتهم ويحضّر مجموعاتهم للمعركة المرتقبة، ولسوء الحظّ مات أميرال أسطول طولون فخلفه في القيادة الأميرال Villeneuve الذي التقى بعد ذلك بالأسطول الأساني الحليف في منطقة كاديكس، وكان القرار العام يقضي بالاتجاه إلى جزر المارتينيك كي يخدع الأسطول الإنكليزي ويضطرّه للإبتعاد عن الجزر البريطانية للمحافظة على هذه المستعمرات البعيدة، وفي هذه اللحظة بالذات ينقضّ نابوليون من منطقة بولونيا على بريطانيا باجتيازه المانش ونزوله أرض الجزيرة.

ويظهر أنّ الأميرال Villeneuve فشل في رحلته، وبدلاً من التوجّه إلى المانش لمساعدة نابوليون ظلّ قابعاً في مياه كادكس حيث عرَّض نفسه لخطر هجوم الأسطول الإنكليزي، وفي تلك الساعات العصيبة كان نابوليون ينتظر وصول الأميرال Villeneuve بفارغ الصبر ولكن بدون جدوى، ولكم تساءل الأمبراطور الفرنسي عمَّا فعل هذا الأميرال وأين صار هو وأسطوله؟؟ إنّها الفرصة المناسبة للأميرال نلسون ولأسطوله للإنقضاض على الأسطول الفرنسي. إنَّ العدد الكبير لأسطول Villeneuve

الذي رفده الأسطول الأسباني لم يمنع الأسطول الإنكليزي من التفوّق الساحق في تلك المعركة العسكرية الشهيرة التي عُرفت باسم معركة الطرف الأغرّ، ولقد كان النصر كاملاً وحاسماً للأسطول الإنكليزي الذي أغرق معظم السفن البحرية الفرنسية والأسبانية، ولقد قُتِل القائدان في هذه المعركة نِلسون وخصمه Villeneuve ولكن نِلسون عندما أُصيب وَجُرِح عرف وتأكّد من انتصاره قبل موته وكان على ظهر بارجته Victoria، وقد زعم بعض المؤرّخين أنّ الأميرال الإنكليزي نِلسون قتِل في نهاية المعركة أما الأميرال الفرنسي Villeneuve فقد انتحر بعد خسارته الفادحة للمعركة.

ويظهر أنّ نتائج هذه المعركة البحرية كانت هامّة جداً لأنها من ناحية أولى قضت نهائياً على آمال وأوهام نابوليون بإمكانية القضاء على الأسطول الإنكليزي واجتياح الجزر البريطانية، ومن ناحية ثانية أعطت لإنكلترا الاعتراف الضمني بالقدرة على السيطرة على البحر وعلى إمكانية استمرار مرور قوافلها التجارية أينما تشاء وبحماية أسطولها العسكري العظيم.

إنّ هذه المعركة العسكرية جعلت بعض الملوك والقياصرة في أوروبا يفكّرون بالإنقلاب على نابوليون وتحسّس نقاط الضعف في جيشه وقوّته العسكرية فقام القيصر إسكندر الأوّل وأنكر ونقض معاهداته السابقة مع فرنسا وبدأ بالضغط على فرنسا ذاتها لإجبارها على تقليص حدودها والتراجع إلى الوراء، وقد طلب أيضاً من نابوليون الجلاء عن إيطاليا وسويسرا وهولندا وألمانيا.

ولم تنسَ النمسا انكساراتها القديمة أمام جيوش نابوليون فقرّرت التآمر عليه من جديد ومحاربته، وبالفعل فقد اجتاز القائد النمساوي ماك Macq وبدون سابق إنذار الحدود الألمانية واحتلّ باڤاريا ولقد اكتشف

نابوليون بسرعة خطة روسيا والنمسا فكتب إلى وزيره تالليران يقول:

«لن أدع النمسا وروسيا تتحالفان وسوف أدكّ حصونهما معاً».

ولذلك استعان نابوليون بعدّة وحدات ونجدات استقدمها من هولندا واسبانيا، كما استعان بقوّاده جونو وبرنادوت ومسّينا وقد ارتفع عدد جيشه إلى نحو ١٨٦ ألف جندي و٣٥٠ مدفعاً وأصبح هو قائداً لهذا الجيش الكبير بعد أن سلّم قيادة الحرس الأمبراطوري لقائد الخيّالة ميرا Murat.

وفي الـ٢٧ من سنة ١٨٠٥م وصل نابوليون إلى سانسبورغ وخطب في جنوده ليلهب حماسهم ثم عبر النهر حيث كان القائد النمساوي Maque مرابطاً مع ثمانين ألفاً من جيشه وقد استطاع نابوليون تطويقه بسهولة تامة وهزيمته نهائياً.

وفي الـ٢٠ من تشرين الأول من تلك السنة فُتحت أبواب «أولم» للأمبراطور الفرنسي وجيشه، وكان نابوليون قد كسب ٢٥ ألفاً من الأسرى و٢٠٠ مدفعاً وستماية راية عسكرية لأنّ معركة «أولم» كانت من المعارك الناجحة والشهيرة. وفي المساء كتب إلى زوجته جوزفين يخبرها أنه انتصر على جيش النمسا وأنه سيتوجّه إلى روسيا ليرعب قيصرها.

كان الجيش الروسي بقيادة كوتوزوف وكان متوجهاً إلى مرفية حيث تجمّع الحلفاء فلحق به نابوليون على ضفاف الدانوب ثم عاد الجيش الفرنسي واتجه إلى الشمال مجابهاً الرياح والصقيع حتى وصل إلى ڤيينا التي استسلمت في الـ١٣ من تشرين الثاني في تلك السنة، ودخلها نابوليون وبات فيها. وبعد ذلك اتجه إلى منطقة أوسترليتز حيث ستكون أعظم انتصاراته العسكرية وأنجح خططه الاستراتيجية. ولقد استطاع الأمبراطور الفرنسي أن يوقع عدوّه في الفخّ حيث أطبق عليه ولقد انزلق كوتوزوف

بسهولة في هذا الفخّ وتلقى شرّ هزيمة. وبعد ذلك تحدّث نابوليون وجنوده عن شمس أوسترليتز ومجد أوسترليتز وعبقرية الأمبراطور في أوسترليتز إلخ...

إنّ هذه المعارك الناجحة هي التي سمحت لنابوليون بفرض بعض المعاهدات على روسيا والنمسا وبعض الدول الأوروبية. ومنها معاهدة برسبورغ والتي على أساسها تنسحب الجيوش البروسيّة من ألمانيا وبولونيا كي تحظى بروسيا مقابل ذلك بالسلام ومعاهدة برون مع بروسيا تنازل نابوليون عن هانوڤر، كما تنازلت بروسيا عن سباتش في باڤاريا ونيوشاتل وكليف لفرنسا، وبعد ذلك تنعم بروسيا بكسب كل الممتلكات الوراثية لزعماء بريطانيا الذين عاشوا في ألمانيا.

إنّ سنة ١٨٠٦م وسنة ١٨٠٧ و١٨٠٨ كانت حاسمة في حياة نابوليون العسكرية لأنّه سجّل فيها عدة انتصارات على روسيا وبروسيا والنمسا، ومن أهم هذه الانتصارات نذكر معركة أوسترليتز ومعركة «أولم» ومعركة يينا التي على أساسها دخل نابوليون مدينة برلين دخول الفاتح المنتصر وكان ذلك في ٢٧ تشرين الأول ١٨٠٧م، وقد أمضى ثلاثة أيام في بوتسدام وزار قصر سان سوسي، ومنه نزع سيف فردريك الكبير وأوسمته العسكرية وأرسلها كلها إلى قصر الاثفليد في باريس كذكرى لانتصاراته.

وبعد هذه المعاهدات اتجه نابوليون إلى داخل فرنسا لإجراء بعض الإصلاحات والتحصينات والتنظيمات الداخلية، ومنها إقامة نصب من البرونز في ساحة ڤندوم وقد صُنع هذا النصب من المدافع التي كسبها الأمبراطور في معركة أوسترليتز، كما أنّ الأمبراطور أكمل بناء اللوڤر

ورسّخ أبنية البورصة ومستودعات النبيذ وشقّ عدّة شوارع، منها شارع الريڤولي وشارع السلام وغيرها. وحسَّن أوضاع المرافىء في Amvers وشربورغ وبرست ولاروشيل وربط معظم المدن بشبكات من الطرق. كما حفر القنوات في شمال فرنسا وساعد على تنمية الصناعة وتنظيم الجمارك وإنتاج الحرير في ليون وتحسين أصناف روبكس وترأس معارض الصناعة تشجيعاً لها، كما أنه حاول تشجيع التجارة التي تأخّرت بسبب الحروب فأسرع إلى إنشاء غرف التجارة ودعم المشاريع التجارية ومنح الاعتمادات وساعد على كلّ نواحي التقدم التجاري في فرنسا.

وفي هذه المرحلة كان جيش نابوليون المعروف بالجيش الكبير يتعدّى الـ٤٥٠ ألفاً، وكان أعظم جيش عرفه التاريخ حتى ذلك العصر. ويحتوي هذا الجيش على ١٣٠ ألفاً من المشاة و٣٠ ألفاً من الفرسان و١٠ آلاف من رجال المدفعية إلى جانب الحرس الأمبراطوري وغيرهم. وكان هذا الجيش الكبير هو الآلة العسكرية التي يحرّكها نابوليون ويهدّد بها أوروبا ولكونه قائداً ناجحاً فقد كان محبوباً من الجنود ومُطاعاً ومكرَّماً ومعتبراً كمثالٍ أعلى للقائد العسكري والأمبراطور.

نابوليون وروسيا

لقد تعرّض نابوليون لروسيا في عدة جولات سياسية وعسكرية، فلا عجب إذا مرَّ ذكر روسيا في سيرة نابوليون عدّة مرّات في هذا الكتاب خاصة وأنه بعد عدّة معارك مع الجيش الروسي سنرى فيما بعد كيف جهّز حملة عليها ودخل عاصمتها موسكو.

لقد دحر نابوليون الجيش الروسي عدّة مرات وخاصة في ضواحي كونسبرغ حيث تعرّض الجيش الفرنسي بالرغم من انتصاره لأنواع عديدة من العذاب الناتج عن الصقيع والتعب على ضفاف الراين. وكان يشفع بكل ذلك من عذاب ومشقّات ويساعد الجيش على التحمّل هو الوجود الدائم للأمبراطور الفرنسي مع جيشه، فقد كان دائماً إلى جانب جنوده يساعدهم ويلهب حماسهم ويوجّههم ويشاركهم مخاطراتهم في المعارك وأفراحهم في الإنتصار.

وكان يساعد نابوليون في معاركه ضدّ الجيش الروسي عدد كبير من قوّاده الكفوئين والنابغين من أمثال مورتييه ولانس ومورا وبرتيه وغيرهم.

والحقيقة التاريخية أنّ نابوليون انتصر في معركة شرسة جداً هي معركة Elio على الجيش الروسي. وكانت خسائر الروس عظيمة جداً

فملأت الجثث أرض المعركة بين ركام الجليد وتحت السماء الرماديّة والداكنة وفي جوٍّ مأساويٍّ وقارس وصقيع شديد. وكان نابوليون بعد انتصاره ينظر إلى الجثث التي لا يُحصى عددُها ويتنقل بينها ونظرته الحزينة تسيطر على شخصيته وسلوكه، فقد بدا متأثراً من فداحة الخسائر ومن قتل الأبرياء ومن كثرة الحروب والمعارك التي يفرضها عليه أعداؤه الأوروبيون. ولطالما ذكر المؤرِّخون عبارة لفظها الأمبراطور الفرنسي في ساحة المعركة:

«ما أبشع هذا المنظر، أين دعاة الحرب؟؟ ألا يدفعهم هذا المنظر إلى البحث عن السلام...».

ويظهر أنّ روسيا لم تكتف بهذه الخسارة الفادحة في معركة Elio بل حاولت من جديد التصدِّي للفرنسيين وطلبت من نابوليون أموراً رفض تنفيذها، وعلى أساس ذلك وقعت المعركة الشهيرة باسم فريدلاند فهزم نابوليون الجيش الروسي شرّ هزيمة. ونتيجة لهذه المعركة بدأ التفاوض بين الأمبراطور الفرنسي والقيصر الروسي، وقد اجتمع الرجلان لأول مرَّة على ظهر طوّافة في نهر نييمن، وبعد المجاملة والتّرحاب أجمع الفريقان على أنّ بريطانيا هي سبب المشكلات في أوروبا وأنه لا بُدّ من وضع حدٍّ لسيطرتها وتدخّلها في أوروبا، وهذا الإجتماع بين القيصر الروسي ونابوليون نبّه إنكلترا إلى التعديل في خططها وزيادة الحذر في سياستها والبحث عن وسائل جديدة للتدخّل في الشؤون الأوروبية.

نابليـــــون

الأمبراطورية والحياة العائلية

أ ـ **الأمبراطورية**: لقد استطاع نابوليون أن يبني في برهة وجيزة من الوقت أمبراطورية عظيمة ومترامية الأطراف، وكان بناء هذه الأمبراطورية نتيجة لعدد كبير من الإنتصارات العسكرية وفي معارك عديدة. وهكذا يصحّ القول إنّ أمجاد نابوليون لا تعود للأصل الملكي أو الأرستقراطي، كما أنها لا تعود للوراثة الإجتماعية والإقتصادية بل ترتكز في الأساس على عبقرية صاحبها العسكرية.

وهذه الأمبراطورية الكبيرة بقي نابوليون نفسه على رأسها. وبالرغم من وجود وزراء وأمراء إداريين وموظفين إلخ... فإنّ كلمة الفصل والإشراف والتوجيه والقرار كانت كلّها بيد الأمبراطور.

ب ـ هذا لم يمنع نابوليون من الإهتمام بالسلطان الوطني والاجتماعي إلى جانب السلطان العسكري، ولقد صرّح عدّة مرّات بأن السلطان الوطني أهمّ بكثير من السلطان العسكري، ومن هذه الناحية حاول نابوليون وهو الشاب الكورسيكي الوضيع الأصل، حاول بكل ما أعطي من قوّة التقرّب من الشعب الفرنسي وحياة هذا الشعب ومشكلاته. وفي رأيي إنّ الحرب ليست الهدف الذي يسعى إليه بل الوسيلة أو الضرورة التي تفرضها الظروف. ولقد

شبّه نابوليون عبقريته بخزانة كبيرة ومحتوية على أدراج عديدة، فكلّما تعرَّض صاحبها لمشكلة طارئة فتح الدرج المناسب لها وأخرج الحلّ لهذه المشكلة.

ولقد تعلّم نابوليون بسرعة من رجال أكثر خبرة منه في السياسة والإدارة من أمثال سايبس وتالليران وكامبريس، ولكنه عاد وأصلح أخطاء بعض الرِّجال الذين كانوا يعاونونه في أعماله الهامّة من أمثال فوشيه ولوبران وريدر وغيرهم.

ويجمع المؤرِّخون على قدرة نابوليون على العمل والجهد والعطاء، فقد كان يرأس الإجتماعات العامة والإجتماعات الديبلوماسية ومكاتب الإستعلامات وأعمال التفتيش، كما كان يرأس مجالس الدولة ويُملي المراسلات والتقارير والأوامر إلخ...

وكان لا يتردّد أبداً على استدعاء وزرائه في الليل للتحدّث إليهم لأنه كان يشعر أنّ ساعات النهار لا تكفي لإتمام أعماله التي بدأها إلخ...

ويظهر أنّ سكرتيره هو الرجل الوحيد الذي كان يحق له الدخول إلى مكتب الأمبراطور، وفي الصباح الباكر كان نابوليون يحضر إلى مكتبه ويتمشّى فيه ويداه معقودتان إلى الخلْف، ويبدأ بإملاء تقاريره ورسائله والسكرتير يدوِّن ما أملى الأمبراطور ثمّ يوزّع الأوراق على الوزراء والإداريين وقادة الجيش وغيرهم.

ج ـ يعترف المؤرّخون أنّ نابوليون كان يتسامح أحياناً مع جميع الذين يتعامل معهم لأنه كان يفهم ويعرف حدود قدراتهم في العمل والفهم وإطاعة الأوامر، وكان يعتمد بصورة خاصة على عبقريته لتصحيح وإكمال ما نقص في أعمال المكلّفين والمساعدين من رجاله في الإدارة والجيش.

وكان نابوليون يحبّ جنوده ويشجعهم ويلهب حماسهم. وإذا كان

قد نجح في قيادتهم بسهولة فلأنه كان قريباً منهم ولأنه شاركهم في مخاطر المعارك، وكان دائماً إلى جانبهم لأنّ شخصيته هي شخصية الجندي لا شخصية الملك أو الأرستقراطي، وهذا ما جعله مقبولاً ومحبوباً في صفوف الجيش وقد قبل جنوده وضبّاطه الطاعة والتضحية وركوب المخاطر لإرضائه ومحبّة له وإعجاباً به.

ويظهر أنّ الأمبراطور الفرنسي كان يميل في حياته الخاصة واليومية إلى البساطة التامة، وكان يحب الصّدْق والصراحة وكانت شخصيته توحي بالثقة والحزم والمحبّة ولم يكن ليحقد على أحد فهو إذا غضب صدفة عاد بسرعة إلى هدوئه واعترف أنّ ما حصل كان سحابة عابرة وعاد إلى الذين نهرهم فعاملهم من جديد بعطف ومحبّة وكسب ثقتهم ولم يترك أيّ مسافة من اللؤم أو الضغينة بينه وبين أتباعه.

د ـ أما عائلة نابوليون فكانت موضوعاً من نوع آخر خاصة وأنّ نابوليون في حياته الأولى عاش في بؤس وفقر، وفي مرحلة من مراحله كان مسؤولاً عن جميع إخوته ولكنه عرف بعد ذلك الترف والبحبوحة ورفاهية العيش خاصة بعد أن أصبح أمبراطوراً. ويظهر أنّ عائلة نابوليون أوقعته في كثير من المآزق والمشكلات لأنّ إخوته وأخواته لم يكونوا مثله بالبساطة والأخلاق فهو بالرغم من سخائه وعطائه لهم لقد عاملوه بالجحود والتنكّر، وباستثناء أمّه فإننا نستطيع القول إنّ أفراد عائلته كانوا يتعبونه ويسبّبون له الألم والبؤس ولم يغيِّر موقفه وسلوكه فبقي يغمرهم بالعطاء والخير.

ولكنّ هذه الوالدة التي أحبّها نابوليون واحترمها والتي غمرته بالعطف سبّبت له الشقاء عن طريق أخيها الكاردينال فيش الذي سيطر عليها

وعلى أفكارها وأخلاقها، وقد اكتشف الأمبراطور بسرعة هذه الصفات السيئة في شخصيّة خاله الكاردينال.

كان أخوه جوزف ذكياً ومثقفاً غير أنه كان غارقاً في الكسل والخمول والإهمال، وكان يحب حياة الرفاهية والترف. ولقد جعله نابوليون أميراً على نابولي ثم على مدريد.

أمّا أخوه لوسيان فقد كان قوياً وحادّ الذكاء وثابت الشخصية، وكان أفضل البونابرتيين بعد نابوليون. ولقد جعله نابوليون على عرش إيطاليا ثم البرتغال ثم أسبانيا شرط أن يفسخ زواجه من السيدة جوبرتو فرفض لوسيان، وبعد ذلك عاش ومات في عزلة تامة.

أخوه لويس أصبح بفضل نابوليون ملكاً على هولندا، وكان يميل للتنكّر لأخيه الأمبراطور فلم يحقد عليه نابوليون بل عامله بعطف ومحبّة واستمرّ لويس على جحوده.

وكان جيروم أصغر الأشقّاء الأربعة وقد جعله نابوليون ملكاً على وستفاليا، غير أنه اعتاد حياة الاستهتار والتبذير والبذخ غير أنه اعترف بفضل أخيه الامبراطور وقد حاول مساعدته في الأيام العصيبة.

ويظهر أنّ شقيقات نابوليون كُنَّ كإخوته في الجحود والبذخ والتبذير. ولقد تنكّرت له شقيقاته بولين وكارولين وبالرّغم من عطائه لهنَّ ومساعدة أزواجهنّ الذين أعطاهم المراكز العالية في الدولة.

هـ ـ أما بالنسبة للذين ساعدوا نابوليون مباشرة فكان المعروف عن هذا الأمبراطور أنه كان على منتهى السخاء والعطف، فقد كافأ من يستحق من جنوده ومن أعوانه ومن كبار الوزراء والإداريين.

فكمبسيريس وتالليران ولوبرن يذكرون عطاءه المستمر والأموال التي أغدقها عليهم زيادة على مرتباتهم الرسمية.

لقد خصَّ نابوليون القائد برتيبه بمبلغ مليون وثمانمائة ألف فرنك من العائدات، كما خصَّ القائد مسّينا بمليونين وخمسمائة ألف فرنك وأعطى الكثيرين غيرهما مبالغ متفاوتة . وقد منح الألقاب والرتب للمستحقين من أفراد الجيش والضباط والقادة دون أن ينسى أحداً.

ويقول المؤرِّخون أن الأمبراطورالفرنسي كان يحس مع الفقراء ويشعر بالظلم الذي لحق بهم من الأغنياء والملوك والطبقات الأرستقراطية وقال في إحدى المرّات:

«هيّا اقتحموا معاقل الأغنياء وليحملوا رزء الحرب بدل الفقراء».

ولقد عامل نابوليون خدمه بمنتهى المحبّة والسخاء والعطف والإنسانية، فكان يجالسهم ويلاطفهم ويستمع إلى شكاواهم ولم يقم بينه وبينهم أيّ نوع من الحواجز أو الشكليّات الرسمية.

ويظهر أنّ نابوليون كان مشغوفاً بالمطالعة وحُبّ المعرفة، وكان يقرأ كلّ شيء وخاصة الروايات والجغرافية والتاريخ والعلوم وكوّن بذلك ثقافة واسعة ظهرت آثارها في أقواله وأعماله العسكرية والإدارية.

وكان يحبّ الموسيقى وبصورة خاصة الموسيقى الإيطالية، وكان إذا قرأ الشعر والأدب يفضل المأساة على المهزلة، وقد أُعجب بالشاعر الفرنسي كورناي وقال عنه:

«لو أنّ كورناي حيّ لجعلته وزيراً في أمبراطوريتي» وذلك لما في مسرحيات كورناي من كلام وتشجيع على الفضيلة وحبّ الواجب والنبل والأخلاق الراقية والبطولة وما شابه ذلك..

غزو أسبانيا

في تلك الحقبة من الزمن كان عرش أسبانيا مهدداً باستمرار بالإنهيار والضعف والتآكل نتيجة لخلافات جذرية في العائلة المالكة نفسها، هذا إلى جانب ضعف شخصية الحاكم وسوء إدارته لعائلته وللدولة معاً. ويظهر أنّ شارل الرابع قد بدأت قواه بالإنهيار وبسرعة عظيمة، وهذا ما دفعه للتنازل عن عرشه لصالح ابنه فرديناند السابع.

وفي هذه الأثناء كان القائد الفرنسي الباسل مورا Murat يتوجّه على مهل وبمنتهى الراحة نحو أسبانيا على رأس قوّة عظيمة من الجيش الفرنسي، وبعد أن اشتعلت نار الثورة في أسبانيا اضطرّ شارل الرابع من جديد للتنازل عن عرشه للأمبراطور نابوليون شرط أن تبقى أسبانيا دولة مستقلّة وذات سيادة وعلى المذهب الكاثوليكي.

ويظهر أنّ نابوليون دفع مبلغاً يقارب السبعة ملايين فرنك للملك شارل الرابع، كما أنه أهداه قصر لومبياني كثمن لتنازله عن عرش أسبانيا غير أنّ الأمبراطور الفرنسي لم يحتفظ بعرش مدريد لنفسه بل أعطاه لأخيه جوزيف بعد أن عيّن مورا Murat ليخلفه على عرش نابولي. ولما اجتاز ملك أسبانيا الجديد أي جوزيف جبال آلبيرينيه وجد أنّ مملكته الجديدة تحترق بنار الثورة العارمة وأنّ الشعب في حالة غليان وفوضى وحماس

وعدم الاستعداد للطاعة والانقياد.

وهكذا أضرم الأسبان الثورة فكثرت الفتن والكوارث في بدء عهد سلطان الملك الجديد جوزيف، وعمّت هذه الثورة معظم المدن والأرياف حتى لم تبق في أسبانيا بقعة لم يتظاهر فيها الشعب ولم تعمّ فيها الفوْضى وحركات التحدّي والتمرّد. ولم يكن الشعب الأسباني وحده في هذا الموقف الثائر، فقد هبّ الرهبان الأسبان وراحوا يحمّسون الشعب والجيش لمقاومة الإحتلال الفرنسي، وبدأت المناوشات تفتك بالأعداد الكبيرة من جنود الجيش الفرنسي.

وهكذا اضطرّ الجيش الفرنسي خوْض معارك دمويّة عديدة مع الأسبان فخسر الكثير من قوّته ولكنه بالمقابل أوقع الخسائر العظيمة والضحايا العديدة في صفوف الجيش الأسباني والشعب الأسباني، وكانت روح البربرية والقسوة والإنتقام تظهر من الجانبين المتحاربين ولم ترحم هذه الحرب لا الأطفال ولا الشيوخ ولا المرضى ولا العجّز.

وهنا اكتشف نابوليون خطورة ما يجري في أسبانيا وخطورة الابتعاد عن ميدان المعركة، فقرّر الأمبراطور عندئذٍ تأديب الشعب الأسباني وترويضه فأرسل الكثير من الإمدادات إلى أخيه الملك جوزيف حاكم أسبانيا ولقد استطاع هذا الملك انتزاع النصر من الأسبان ١٨٠٨م. وخاصة في مدينة دل ريوسيكو (١٤ تموز من السنة ذاتها) ولمّا دخل إلى مدريد وجد الشعب كلّه مُهتاجاً ومتظاهراً ضدّه وضدّ فرنسا.

ولقد استطاع الجنرال الفرنسي دوبون الاستيلاء على قرطبة بالقوة ولكنه اضطرّ فيما بعد إلى عقد معاهدة الصلح مع الثوّار في جنوب أسبانيا لتلافي خطر تطويق جيشه، ولقد نكث الثوّار بالمعاهدة ونكّلوا بالجنود

الفرنسيين فأسروهم وأذلُّوهم وقتلوهم.

ويقول بعض المؤرّخين إنَّ أخطاء القادة الفرنسيين من أمثال سافري وغيره أرغم الملك جوزيف على الهرب من أسبانيا بعد أن أحسَّ بضعفه وضعف جيشه أمام الثوار الأسبان. وبذلك تراجعت وتقهقرت القوات الفرنسية عن أسبانيا نحو الشمال، وكذلك، ففي البرتغال قامت ثورة في وجه الفرنسيين بمساعدة الجيش الإنكليزي الذي كان بقيادة ولينغتون والذي تغلّب بسهولة على بعض القادة الفرنسيين والذي فرض المعاهدة التي نصّت على انسحاب الجيوش الفرنسية من البرتغال إلى فرنسا وذلك في ٣٠ آب من السنة ذاتها.

وعلى أثر ذلك قرّر الأمبراطور الفرنسي الانتقام من أسبانيا ومن الشعب الأسباني وأراد إخضاعها من جديد بالقوّة وبدأ بالاستعداد لذلك، ولكنه في الوقت ذاته اكتشف أنَّ بعض الدول الأوروبية بدأت تستعدّ للحرب ضدّه وخاصة النمسا وبروسيا.

حاول نابوليون القيام بخطوة سياسية جديدة فأراد مهادنة القيصر الروسي، فكتب إليه لاستمالة قلبه وبضرورة كسر شوكة إنكلترا عن طريق تهديد مستعمراتها وخاصة الهند (شباط ١٨٠٨م)، فقد خطط نابوليون لتكوين جيش مشترك من الروس والفرنسيين يستطيع الوصول إلى القسطنطينية وشواطىء الفرات ليخيف إنكلترا ويرغمها على الاستسلام ورمي السلاح.

وفي الواقع تمَّ اللقاء بين الأمبراطور الفرنسي والقيصر الروسي في ٢٧ أيلول وفي ضواحي مدينة أيرفورت، وبعد ذلك انتقل نابوليون إلى ڤيمار والتقى بعض الأدباء والشعراء الكبار من أمثال غوتيه وويلاند ولقد

امتدح نابوليون غوتيه قائلاً «أنت رجل عظيم يا غوتيه». كما أنه منح هذين الأديبين الكبيرين وسام جوقة الشرف.

ويظهر أنّ سياسة القيصر كانت تخفي الكثير من النوايا الغامضة والألاعيب الكاذبة والخطوات المعاكسة لآمال نابوليون وللأحاديث التي دارت بينهما في ساعات اللقاء في ضواحي مدينة إيرفورت.

وفي الخامس من تشرين الثاني ١٨٠٨م تقدّم نابوليون على رأس جيش يتجاوز المائة ألف جندي باتجاه أسبانيا لإرغامها على الخضوع بالقوّة وقبول أخيه جوزيف ملكاً عليها من جديد، وكان يعاونه في تلك الحملة كبار قادته من أمثال سولت وناي ولوڤبر ومورتييه وغيرهم، ولقد استطاع أن يكسر الأسبانيين ثلاث مرّات متتالية في مدّة لا تتجاوز الأسبوعين.

ولما وصل الأمبراطور إلى مدريد فتحت هذه المدينة أبوابها أمامه فرفض نابوليون الدخول إليها إلاّ بعد أن يقبل الأسبان من جديد بجوزيف ملكاً عليهم. وهنا رفضت أسبانيا الإستسلام.

وقد حثّ الرهبان الشعب على الوقوف في وجه الفرنسيين وزادت المعارك الضارية بين الفرنسيين والثوّار وزاد عدد الضحايا من الطرفين، ولقد اعترف بذلك القائد الفرنسي لانس قائلاً:

«يا لها من معارك: إنها ترغمنا على قتل الأبرياء والأشرار معاً، فالنصر مفعم باللوعة والأسى، ولا بُدَّ لنا من هدم المدينة بكاملها للاستيلاء عليها بيتاً بيتاً».

وفي شهر كانون الثاني ١٨٠٩م وصلت أخبار سيّئة إلى الأمبراطور، ومفادها أنّ النمسا بدأت تستعد للحرب وأنّ القيصر الرُّوسي بدأ بتغيير مواقفه من نابوليون وإنكار ما اتفق عليه مع الأمبراطور الفرنسي عندما

اجتمعا في أيرفورت، فشعر نابوليون أنّ عليه أن يترك أسبانيا بسرعة ليرجع إلى فرنسا ويُدافع عنها في وجه الأخطار الجديدة التي بدأت تداهمها من الشرق.

وبذلك ترك نابوليون أسبانيا وترك ساحة المعركة وترك الجيش الفرنسي وعاد إلى فرنسا ليحضّر نفسه وجيشه الجديد لمعارك جديدة مع النمسا وبروسيا، أمّا جيشه في أسبانيا فقد ترك قيادته بعهدة كبار قوّاده سولت وني وبمساعدة باقي القوّاد الكبار ومعتقداً كلّ الاعتقاد أنّ هؤلاء القادة الفرنسيين سيحققون النصر في أسبانيا بسُرعة وسيقمعون الثورة وسيتخلّصون من الجيش الإنكليزي المرابط بقيادة ولنغتون وسيعيدون أخاه جوزيف ملكاً على أسبانيا.

هذه هي أفكار وأحلام نابوليون عندما ترك أسبانيا وعاد إلى قصر التويليري في باريس، وكان ذلك في الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٨٠٩م. وفي هذه المرحلة بالذات أبدى الأمبراطور بعض الاستياء من معاونيه في الشرطة والإدارة وخاصة من فوشيه، كما تذمّر كثيراً من إخوته الذين خذلوه وخاصة جوزيف الذي فشل في أسبانيا، ولويس الذي فضّل هولندا على فرنسا وجيروم الذي فضحته حماقته في وستفاليا.

كما أنّ نابوليون تأفّف كثيراً من أوضاع البورصة والمجلس الاشتراعي وبعض الإدارات إلخ... غير أنّ الأمبراطور أحسَّ بالخطر الذي يحدق بفرنسا من ناحية النمسا فجهّز جيشاً يقارب الثلاثمائة ألف جندي وجعل من مساعديه القادة برنادوت وداڤو ومسّينا ولانس وأوغورو وغيرهم، أمّا كبار الضبّاط والقوّاد، فقد كان تركهم على رأس جيشه الذي غزا أسبانيا لإعادة أخيه جوزيف ملكاً عليها.

التقى نابوليون بالنمساويين في براتسبون فاستولى عليها بسهولة غير أنّ الأمبراطور أصيب بجرحٍ طفيف فعالجه الطبيب بسرعة. وبدأ في هذه الفترة غزو باڤاريا التي لم تستغرق أكثر من خمسة أيام. وفي العاشر من أيار وصل نابوليون إلى ڤيينّا بعد معركة حامية ودامية في إيسلبرغ وقبل أن يجتاز الجيش الفرنسي بكامله نهر الدانوب، ضاعف النمساويون جهودهم العسكرية فاشتدّ العراك وأصيب الجنرال لانس بقذيفة ومات في المعركة.

والحقيقة أنّ وضع هذه الحرب بقي متأرجحاً نوعاً ما بين الطرفين ولكن الخسائر كانت عظيمة للغاية واستطاع الجيش الفرنسي البقاء مرابطاً في جزيرة لوبو، ولقد زعم الأرشيدوق النمساوي أنّه انتصر على نابوليون ووصل هذا الخبر إلى كلّ أوروبا فبدأت حركات التمرّد ضد الأمبراطور الفرنسي.

وفي الخامس من شهر تموز شنّ الأمبراطور الفرنسي هجومه الصاعق على وغرام فشطر القوات النمساوية وأضعفها. وفي السادس من تموز تمَّ النصر النهائي لنابوليون على النمسا في معركة وغرام فتراجع الأرشيدوق النمساوي بعد أن مُني بخسائر فادحة. ولقد اعتقد نابوليون أنّ هذا الانتصار العسكري سيكون طريقاً للسلام وبالفعل فقد تمّت المعاهدة في ١١ تموز من السنة ذاتها.

وفي هذه الأثناء ساءت العلاقات بين الأمبراطور الفرنسي والڤاتيكان، فأمر نابوليون بمصادرة أملاك البابا وسجنه. وهكذا حصل، فتعرَّض البابا للإهانة والسجن والنفي. وبعد ذلك ندم نابوليون على عمله واعتبره ضرباً من الجنون، فأمر بنقل البابا من المنفى إلى قصرٍ لائق به، وأعاد تكريمه وأعطاه المكانة التي يستحقها، وأرجعه إلى عرشه الكاثوليكي.

لمحة عن جوانب خاصة
في حيـــاة نابوليــون

والآن لا بُدّ لنا من العودة إلى بعض الجوانب الخاصة في حياة أمبراطور فرنسا بعد أن إطّلعنا على عدد كبير من أعماله العسكرية ومعاركه كأوسترليتز وبينا ووغرام وغيرها، وقد يكون أهم جانب في هذه المرحلة من حياته الخاصة بين السنة ١٨٠٨ و١٨١٠م، حدوث الطلاق من جوزفين الأمبراطورة السابقة والتي طالما أحبها نابوليون وعاش أحلى أيامه بدفء أنوثتها.

ولعلّ الدافع الأساسي لهذا الطلاق بعد زواج دام نحو ثلاث عشرة سنة وبعد حبٍّ طويل وإحساس بالسعادة، يعود في الأساس إلى كوْن نابوليون لم يستطع إنجاب طفل من زوجته جوزفين. والأمبراطور نابوليون يريد بأيّ ثمن، أن يكون له وريث على العرش. وهو يشعر بأنّ أمبراطوريته الواسعة التي بناها بجهده وعبقريته وانتصاراته العسكرية يجب ألاّ تترك سدىً من بعده دون وريث شرعي، فلذلك فإننا نراه يحاول أن ينجب ولداً ليصبح وريثه.

ولكننا نعترف مع ذلك أنّ نابوليون قد عاش علاقة خاصة عاطفية

وجنسية مع فتاة جميلة اسمها ماري ڤالڤيسكا وقد زادت هذه العلاقة بصورة خاصة أثناء حملة الأمبراطور على بولونيا، وقد جاءت هذه الفتاة إلى الأمبراطور بعد معركة «وِغْرام» لتعلنَ له حبَّها وإخلاصها، وبعد فترة رافقته إلى باريس. ويقول بعض المؤرّخين أنه أنجب منها طِفْلاً وفي هذه الأثناء أمر الأمبراطور بجعل جدار بين غرفته الخاصة وغرفة الأمبراطورة جوزفين، وقد أذاع هذا الخبر فوشيه في كل أنحاء باريس وبالتالي عرف الشعب الفرنسي بما حدث بين نابوليون وجوزفين.

ولقد توالت المواقف المأساوية طيلة شهر تشرين الثاني من تلك السنة بين الأمبراطور والأمبراطورة، وقد أعلن نابوليون مِراراً أنّ السياسة لا تعرف العاطفة وأنها مجرّد عمل فكري لا أكثر، ومثل هذا الموقف دفع بجوزفين للإذعان لأمر الأمبراطور وقبول الطلاق الذي لا مفرَّ منه. ولقد وعدها الأمبراطور بالمحافظة على لقبها والبقاء في قصرها مع راتب قدره ثلاثة ملايين فرنك، ودون أن يحرمها من كل مظاهر وإمكانيات البذخ والترف والحريّة.

ففي الخامس عشر من شهر كانون الأول حضرت العائلة بكاملها إلى مكتب الأمبراطور حيث تمَّ التوقيع على الطلاق الشهير. وقد تولّى كامبريس كتابة المحضر الذي سيُتلى بعد الإجتماع وبعد ذلك قال الأمبراطور:

«فقدت كلّ أمل بإنجاب البنين من زوجتي جوزفين. وهذا ما دفعني للتضحية بالحُبّ وأرغمني للإصغاء لصوْت الواجب نحو وطني ولن أتخلّف أبداً عن بذل أعزّ ما عندي لمجد فرنسا».

وبعد ذلك وقفت جوزفين لتقرأ خطابها وغصّ صوتها بالبكاء، وعند

ذلك ناب عنها في القراءة وزير البلاط الأمبراطوري. ومما جاء في هذا الخطاب:

«كلّ ما غنمتُه هو هِبة سمحاء من يد الأمبراطور، فقد ألبسني التاج وجعلني مصدر التكريم الذي أحاطني به الشعب الفرنسي. وأنا أُذعن حُرَّة لإرادة الأمبراطور وأوافق على فسخ زواجي منه لأنه قد أصبح عقبة في طريق ازدهار فرنسا».

وفي اليوم الثاني أي اليوم الذي تلا الطلاق الرسمي أقرَّ مجلس الشيوخ الطلاق بعد خطاب عظيم ومؤثّر ألقاه الأمير Eugène ثم انتقلت جوزفين إلى قصر Mal Maison في ضواحي باريس، أما نابوليون فقد توجّه إلى Trianon والهمّ بادٍ عليه. ولكنْ ما حصل من ناحية الطلاق وشكلياته لم يكن شرعياً لأنّ الطلاق المسيحي يفترض قبول البابا ليصبح شرعياً. ولا ننسى أنّ نابوليون كان قد أغضب البابا وصادر أملاك الڤاتيكان وكسر جيشه وهدّده عدّة مرات.

ولقد حصلت عدّة مشاورات مع الملوك والقياصرة وعائلاتهم وأتباعهم لتأمين زواج جديد للأمبراطور. وهكذا وقع الاختيار على ماري لويز إبنة أمبراطور النمسا. ومثل هذا الاختيار أفرح البعض ولكنه أغضب البعض الآخر في فرنسا وخارجها. ويظهر أنّ كامبسيريس وMurat كانا ضدّ هذا الزواج الجديد من ماري لويز بينما كان تالليران وفوشيه يحبّذانه كثيراً.

ويظهر أنّ الأمبراطور الفرنسي قد حاول بواسطة هذا الزواج خلْق نوع من التوازن الجديد في القارة الأوروبية. فلقد أتعبته حرب أسبانيا وعداء البابا ومواقف القيصر الرُّوسي واعتقد أنّ النمسا ستصبح عاملاً فاعلاً

في خلق هذا التوازن الجديد أو هذا الانسجام بين نابوليون وملوك أوروبا.

ولا بُدّ من الإعتراف أنّ نابوليون قد أعجب بماري لويز من أوّل مرّة التقى بها، ولقد كانت آية في الجمال، وكانت ذات ثقافة واسعة ومتنوّعة فهي تتكلّم بسهولة خمس لغات وتعزف البيانو وتتقن الرسم، وتحبّ كلّ الأشياء الجميلة والفنّية، ولا عجب أبداً إذا أُعجِب بها نابوليون وأحبّها كثيراً.

وسرعان ما بادر الأمبراطور الفرنسي بإرسال العديد من الهدايا إلى ڤيينّا وإلى قصر أهل ماري لويز بالذات، ولقد غادر باريس لإستقبال عروسه الجديدة فالتقاها في قرية كورسيل وكان موعد الإحتفالات الرسمية للزواج في الأوّل من نيسان من تلك السنة (١٨١٠م)، وبعد الخطوبة بخمسة أيام بارك الكاردينال «فيش» زواج الأمبراطور الفرنسي بماري لويز وذلك في مدينة ڤيينّا ولبست ماري لويز تاج فرنسا وأصبحت أمبراطورة.

أمضى نابوليون وعروسه شهر العسل بسعادة تامة، وكان يحبّ عروسه ويلبّي كل رغباتها، كما كان يسعى لإسعادها وإرضائها باستمرار. وفي إحدى المرّات قالت عنه عندما عادت إلى ڤيينّا:

«يعتقد الناس كلّهم أنني أهاب الأمبراطور، والحقيقة أنه هو الذي يهابني».

ومثل هذا الكلام لا يعني تماماً خوْفَ الأمبراطور منها بل محبته لها وحرصه على إرضائها وإسعادها.

وفي صباح العشرين من آذار رُزِق نابوليون بصبيّ أصبح وليّاً لعهده. وبذلكَ عمَّ الفرح قلب نابوليون وماري لويز وباريس والشعب الفرنسي وفرنسا كلّها. وكثرت بهذه المناسبة الحفلات والخطابات ومظاهر الإبتهاج

والزينة في البيوت والأندية والساحات العامة والشوارع.

إنّ أمبراطوريّة نابوليون عظيمة ومترامية الأطراف ولقد نظمها الأمبراطور الفرنسي في ١٣٢ ولاية واستطاع بسهولة الاستيلاء على: كاتالونيا وأراغون ونافار وذلك في الثامن من شباط ١٨١٠م وقد قام بذلك كمقدّمة لضبط أسبانيا والسيطرة عليها. ولمّا شعر الأمبراطور أنّ أخاه لويس قد أصبح هولندياً أكثر من اللازم استولى على مملكته في التاسع من تموز من تلك السنة ليضمن إمكانية تنفيذ الحصار القارّي الذي بدأه ضدّ إنكلترا. كما أنه استولى على دوقيّة أولدنبورغ الواسعة وبريم وهنبورغ ولوبيك وغيرها وبذلك امتدّ سلطان فرنسا من نهر الإيبر حتى جبال الألب ومن بروتاني حتى كاريغاليانو وزارا. وبذلك أصبح نابوليون سلطان أوروبا بلا منازع وسيِّدها الأكبر وأصبح الجميع يخافون قوّته وسطوته وتحرّكاته.

ومن ناحية ثانية، فقد تململ الشعب الفرنسي كثيراً لأنّ الحروب العديدة أنهكته وأفقدته خيرة شُبّانه، كما أنها زرعت الخراب في المدن والنفوس وشلّت الحياة الزراعية والتجاريّة وأنهكت الإقتصاد في جميع حقوله. وهذا ما دفع عدداً كبيراً من الفرنسيين للهجرة خارج فرنسا هرباً من الجندية وخطر الموْت في المعارك العسكرية وخطر التشرّد وفقدان الحياة العائلية، ولقد تجاوز عدد الذين هاجروا سنة ١٨١٠م المائة وستين ألفاً.

ولا ننسى أنّ هناك إشكالات عديدة بقيت عالقة وتحتاج إلى حلّ منها علاقة نابوليون بالبابا وغيرها مما دفع نابوليون أن يهرب من الشعب الذي يتململ حوله فخرج من باريس وذهب إلى سانكلود. ولاحظ نابوليون أنّ عدداً كبيراً ممّن كانوا يخلصون له ويمتدحون حكمه قد بدأوا يبتعدون عنه ويتركونه غارقاً في مشكلاته العديدة، وعاد البابا يحرِّك سلطته

في أوروبا معلناً نفسه سيّد أوروبا في وجه نابوليون لأنه هو الذي يمثّل الكنيسة في كلّ العالم والقائد الشهير برتييه ترك نابوليون وابتعد عنه. وزيادة على ذلك فإنّ العديد من دول أوروبا بدأت تتحرَّك ضدَّ نابوليون، فالنمسا حاقدة عليه والقيصر يُراوغ ويحاول نقض معاهدته، وبروسيا تنظّم قواها لمواجهة جديدة محتملة، وأسبانيا بمعاركها الدامية تشكل جُرْحاً دامياً ينزف باستمرار، وولنغتون الإنكليزي أجبر القائد الفرنسي مسّينا على التراجع في معركة ڤينتيس دي أونيرو، وكذلك فإنّ إنكلترا لا تزال تتحدّى الأمبراطور الفرنسي ولا يزال أسطولها سيّد البحار، ولقد استطاع الأميرال نلسون من تدمير الأسطول الفرنسي مرّتين، مرّة في أبي قير ومرّة في الرأس الأغرّ مثبتاً بذلك أنّ الأسطول الإنكليزي كان ولا زال سيّد البحار بلا منازع. أمّا مشروع الحصار القارّي الذي تبنّاه نابوليون فلم ينجح تماماً لأنّ بعض الدول الأوروبية بدأت تتملّص منه وتتحرَّر تدريجياً. وهكذا شعر نابوليون أنّ الحصار القارّي قد أنهكه هو ولم ينهك إنكلترا، كما ظنّ بادىء الأمر بالرغم من كلّ انتصاراته العسكرية التي كانت في الواقع انتصاراً على كل ملوك أوروبا وعلى جيوش أوروبا ولم تكن إنتصاراً على شعوبها.

الزحف على روسيا (١٨١٢)

لقد بدأ التوتّر بين روسيا وفرنسا يزداد تدريجياً منذ سنين خاصة وقد شعر نابوليون أنّ القيصر الروسي قد بدأ بتغيير مواقفه التي تدلّ على أنه يحاول بشكل أو بآخر التنصّل من كلّ الاتفاقات والارتباطات السابقة والعهود التي كان قد قطعها على نفسه مع الأمبراطور الفرنسي، ولم يغفل نابوليون عن ناحية هامة وهي أنّ القيصر الروسي قد بدأ عملياً بخيانة الأمبراطور الفرنسي والانضمام تدريجياً إلى الحلفاء لتكوين جبهة جديدة في أوروبا تقف في وجه المدّ الفرنسي. وفي هذه الأثناء كانت إنكلترا لا تزال تغذّي الفتن والمؤامرات العديدة في أوروبا وحكوماتها وممالكها ضدّ نابوليون وذلك بوسائل عديدة أهمُّها المساعدات العسكرية والاقتصادية التي قدّمتها لدول عديدة من أوروبا كالنمسا وأسبانيا وغيرهما.

ونحن نعلم أنّ الأمبراطور الفرنسي كان يأمل دائماً ويحاول دائماً إدخال روسيا في الحصار القارّي الذي بدأه بوجه إنكلترا يُضيِّق عليها الخناق الاقتصادي ويمنعها من تحويل أوروبا إلى أسواق اقتصاديّة لها. وكان حلم نابوليون الدائم هو جعل أوروبا كلّها تنصهر وتدخل في الحصار القارّي لتحارب إنكلترا، ولذلك اعتقد نابوليون أنه بالإمكان أن يجعل روسيا تذعن لأمره وتتبنّى الحصار القاري عن طريق تخويفها بقوته

العسكرية. وبمعنى آخر حاول إخضاعها عسكرياً أو في البدْء لإخضاعها عسكرياً فيما بعد، ومن هنا نشأت فكرة نابوليون بالحملة على روسيا.

ولقد جمع الأمبراطور الفرنسي جيشه العظيم في ألمانيا وحشد معظم قوّاده الكبار لمساعدته في هذه الحملة. ويُقال إنّ عدد هذا الجيش الكبير كان أربعمائة ألف أو ٦٥٠ ألفاً وكان عدد مدافعه نحو ١١٥٠ مدفعاً.

وفي الخامس والعشرين من شهر نيسان من تلك السنة دخل نابوليون ألمانيا ولكنه تلقّى فيها رسالة من قنصل القيصر الروسي يطلب منه فيها التراجع والتنازل عن بعض الأراضي، وبالمقابل فقد أرسل نابوليون عن طريق القنصل الروسي في ألمانيا رسالة إلى القيصر يدعوه فيها للسلام والوئام والتزام المعاهدات، غير أنّ العاهل الرُّوسي تشامخ ورفض بقسوة طلب الأمبراطور الفرنسي.

ويذكر المؤرّخون أنّ الجيش الفرنسي الكبير قد بدأ بالزحف باتجاه نهر النيمن وقد وصله بعد شهر كامل من المشي، وبعد ذلك تابع نابوليون وجيشه الكبير التوغّل في الأراضي الواسعة باتجاه موسكو. كان جيش القيصر الروسي أقل عدداً من جيش نابوليون وأقل عتاداً، غير أنّ هذا الجيش اعتمد في حربه للجيش الفرنسي على المسافات ورداءة الطقس والبرد وغير ذلك من الأمور الطبيعية التي واجهت بقسوة الأمبراطور الفرنسي وجيشه الكبير.

وبعد وقت قصير هاجم الجيش الفرنسي مدينة سمولنسك ودخلها بعد معركة طاحنة، وكان القائد الروسي براغسيون يقاتل ويخطط بذكاء وضراوة، ولقد شهد له نابوليون بكفاءاته العسكرية، غير أنّ الأمبراطور الفرنسي شعر بعد ذلك أنّ خطة القيصر الروسي هي في استدراجه إلى

داخل الأراضي الروسية ليضيع هو وجيشه في تلك الأبعاد المجهولة والواسعة، ولقد شعر معظم القادة الفرنسيين بهذا الأمر وطلبوا من نابوليون العودة، أو على الأقلّ الإحجام عن غزو موسكو، غير أنّ الأمبراطور رفض بقوّة وشعر أنّ العاصمة الروسية أصبحت بمتناول يده فأمر جيشه بالزحف فوراً على موسكو.

كان على رأس الجيش الروسي المارشال كوتوزوف وقد بلغ السبعين أو السبعة والسبعين من العمر، وكان في تلك الأثناء القائد الأعلى للجيش وكان يتمتع بذكاء حادّ ومرونة عظيمة وخبرة واسعة ودهاء غريب، ولقد جنّد نفسه عندما أحسَّ بالخطر الفرنسي يهدّد بلاده ويهدّد عاصمته موسكو فأسرع إلى تنظيم جيشه وجمّعه على ثلاث تلال قرب موسكو وعلى ضفاف نهر الموسكوڤا أحد روافد نهر الڤولغا وكان عدد هذا الجيش يتعدّى المائة والعشرين ألف رجل، هذا عدا عن كتائب الميليشيات والقوازق.

ولقد وصل نابوليون إلى مرج پورودينو بالقرب من موسكو وذلك في الخامس من كانون الأول فارتاح الجيش الفرنسي تلك الليلة وفي اليوم الثاني انتعش هذا الجيش عندما أشرقت الشمس عليه في تلك الأبعاد النائية والغريبة.

ولم يكن الجيش الروسي بعيداً عن الجيش الفرنسي، فلقد كان أمامه على نصف ميل تقريباً وكلا الجيشين كان يستعد بكل قوّته للمعركة الحاسمة لأنّ هذه المعركة ستحصل على أبواب العاصمة الروسية (موسكو).

وفي الصباح وحوالي الساعة العاشرة بدأت المعركة الطاحنة بين الآلاف من الجنود الفرنسيين والجنود الروسيين، وفيما بعد أطلق

الفرنسيون اسم موسكوفا على هذه المعركة بينما سمّاها الروس معركة آلبورودينو، ولقد نزلت كلّ فرق نابوليون إلى المعركة وبكل ثقلها، كما أنّ الجيش الروسي دافع واستمات بكل قوته مظهراً إخلاصه لبلاده وقدراته على الحرب والقتال والثبات غير أنّ الأمبراطور الفرنسي رفض أن يترك حرسه الأمبراطوري ينخرط في هذه المعركة بالرغم من إلحاح معظم قوّاده على هذا الطلب وخاصة Murat وناي Ney؛ لقد كانت حجّة نابوليون أنه لا يجوز أن يضحّي بالحرس الأمبراطوري على مسافة الآلاف من الفراسخ بعيداً عن العاصمة.

ولقد أظهر القائد براغسيون براعة هائلة في الحرب ولكنه لسوء الحظ قُتل أثناء المعركة فخسر المارشال كوتوزوف أهمّ قوّاده وأعوانه في هذه المعركة الحاسمة، وفي النهاية انكسر الجيش الروسي وفرَّ هارباً من أرض المعركة فلحقه الجيش الفرنسي وطارد فلوله من ساحة المعركة.

لقد سمحت هذه المعركة لنابوليون بدخول موسكو بعد أن استطاع أن يكسر الجيش الروسي غير أنَّ الخسائر كانت عظيمة للغاية، وقد زعم بعض المؤرِّخين أنّ خسائر الفرنسيين تعدَّت العشرين أو الثلاثين ألفاً، وبالمقابل فقد تعدّت خسائر الروس الستّين ألفاً فلا عجب بعد ذلك إذا ظهر نابوليون حزيناً وواجماً وقلقاً أمام قوّاده حتى ساعة الانتصار.

وعلى أثر ذلك توجه نابوليون إلى العاصمة موسكو ودخلها، وكان المارشال كوتوزوف قد أمر الروس بالابتعاد عنها وبإحراقها بعد أن أطلقوا سراح السجناء، كما طلب من جنوده الذين بقوا بعد هذه المبعركة من التجمّع خارج موسكو للمحافظة عليهم وتنظيمهم وإعدادهم لحرب جديدة.

وما إن دخل نابوليون موسكو حتى انتقل القيصر من موسكو إلى بطرسبرغ ناقلاً عاصمته إلى هذه المدينة في شمال البلاد. لقد أمر نابوليون جنوده بإخماد الحرائق بعد أن فوجيء بمنظر ألسنة اللهيب وأعمدة الدخان ترتفع من مباني المدينة وحيث قال:

«يا للمنظر البشع يا للرِّجال».

وعاد نابوليون يتأمّل من جديد في الحالة التي وصل اليها فكتب رسالة إلى القيصر يعرض عليه السلام من جديد، ولقد ظنّ أنّ القيصر بعد أن انكسر جيشه على أبواب موسكو سيذعن لإرادة نابوليون ويقبل السلام غير أنّ هذه الرسالة كغيرها من الرسائل قد باءت بالفشل.

إذاً لم ينجح نابوليون في فرض السلام على أوروبا وعلى القيصر، كما أنّه لم ينجح في إدخال روسيا في الحصار القارّي ضدّ إنكلترا، ولذلك قرَّر الإنسحاب من موسكو والعوْدة إلى فرنسا، أمّا القيصر فتعمَّد علناً محاربة نابوليون بتوثيق حلف مع السويد ومع إنكلترا ضدّ نابوليون والوقوف في وجهه حتى الموت.

وفي أثناء غياب نابوليون عن باريس أي خلال هذه الحملة على روسيا، فقد حصلت عدّة أمور سيّئة في العاصمة الفرنسية، ومنها محاولات القيام بانقلابات ضدّه، كما فعل الجنرال ماليه وهذا ما جعل عودة نابوليون إلى باريس أمراً ضرورياً وبأسرع وقت.

أمّا طيلة فترة الانسحاب من الأراضي الروسية الشاسعة، فقد تعرَّض الجيش الفرنسي باستمرار لهجمات ضارية من الجيش الروسي الذي كان يلاحقه باستمرار وينقضّ على مؤخرته أو على الجنود الذين تأخروا عن اللحاق بفرقهم، غير أن الخطر المحدق والعظيم لم يأتِ من الجيش

الروسي بل من الطبيعة لأنّ شدّة البرد والصقيع والمسافات أنهكت وأهلكت الجيش الفرنسي، فكانت الطرق التي سلكها هذا الجيش والأمكنة التي ارتاح فيها مليئة بالجثث والأسلحة والأعلام وبقايا الثياب ولعلّ أصعب مرحلة من مراحل الانسحاب كانت عندما وصل نابوليون إلى نهر البرسينا، فلقد استطاع نابوليون أن يخدع الجيش الروسي ويعطي الوقت لمهندسيه لبناء جسرين على النهر، أحدهما للعربات والآخر للمشاة، بينما كلّف نابوليون المارشال ناي مع عشرة آلاف جندي فرنسي بمنع الجيش الروسي من التقدم، ولقد عبر الجيش الفرنسي مع عرباته بشكل كامل تقريباً ولم يبقَ منه سوى عدد بسيط يُقدّر بعشرة آلاف، وعندها أطلّ الجيش الروسي، فأمر نابوليون بإحراق الجسور وضحّى بعشرة آلاف جندي فرنسي أي الذين لم يعبروا حتى الآن فوقعوا في قبضة الروس فريسة للتعذيب والقتل.

وبعد ذلك شعر الأمبراطور الفرنسي أنّ جيشه أصبح نوعاً ما بمأمن من الخطر فأناط قيادة هذا الجيش بالمارشال Murat ورحل بشكل سرّي وسريع باتجاه باريس.

وصل نابوليون إلى قصر تويليري في مساء الثامن عشر من كانون الأوّل من تلك السنة وعلى فمه ابتسامة السخرية والمرارة وكان يردِّد:

«هذه بداية النهاية».

والحقيقة أنّ خسارة نابوليون كانت عظيمة للغاية في حملته على روسيا، ولقد ذكر بعض المؤرّخين أن خسائره تقدّر بنحو مائتي ألف رجل أو أكثر، هذا عدا العربات والمدافع والذخائر وباقي الآليات، وكانت آثار هذه الحملة سيّئة للغاية لأنها أعطت لأوروبا الثقة بنفسها وإحساسها بالقدرة

على مقابلة نابوليون عسكرياً بعد أن خسر جيشه في صقيع روسيا، ولذلك فإنّ المفاوضات العديدة التي حصلت بين نابوليون وباقي الدول وخاصة مع مترنيخ وغيره، ومعارك بوتزن ولوتزن لم تؤثر أبداً في موقف أوروبا العدائي ضد الأمبراطور الفرنسي. من الناحية العسكرية لقد استطاع نابوليون أن يكسر الجيش الروسي في معركتين؛ الأولى سمولنسك ومعركة موسكوڤا، كما أنه استطاع دخول موسكو غير أنه خسر جيشه المعروف باسم الجيش الكبير وأصبح بالنسبة لأوروبا أضعف عسكرياً مما كان عليه.

معركة ليبزيغ أو معركة الأمم

ذكرنا سابقاً أنّ الجيش الفرنسي أصيب بنكبة عند انسحابه من الأراضي الروسية وذلك بسبب البرد والصقيع وطول المسافات التي اجتازها عند انسحابه، وذكرنا أيضاً أنّ خسائر هذا الجيش الكبير كانت عظيمة وتعدّت بمجملها المائتي ألف جندي. ولقد أحسّ الحلفاء بنقطة الضعف التي أصابت نابوليون نتيجة للخسارة الهائلة التي لحقت بجيشه فأصبح عندهم الشجاعة لمهاجمة الأمبراطور الفرنسي وعندهم الأمل الكبير بالانتصار عليه للزحف على فرنسا ودخول العاصمة باريس.

وبالفعل تقدّم الحلفاء باتجاه نهر الراين وكان القائد شوارزنبرغ على رأس جيش عظيم، وفي هذه الأثناء اجتازت الجيوش الإنكليزية جبال البيرينيه في ١٣ تشرين الثاني ١٨١٣م.

ولقد حاول نابوليون مواجهة جيوش الحلفاء وإيقافهم معتمداً على قوّاده من أمثال ڤيكتور ومارمون وماغدونالد وغيرهم، ولقد استطاع الفرنسيون تأخير تقدّم الحلفاء وقتاً طويلاً بالرغم من تفاوت العدد بين جيش نابوليون وجيش الحلفاء، وهذا يعني أنّ نابوليون أوقف الحلفاء مدّة طويلة على ضفاف الراين.

ولقد اتفق الحلفاء على خلع نابوليون عن عرشه وتحطيم جيشه، ولكنهم عادوا فاختلفوا حوْل موضوع تصفية وتقسيم تركة نابوليون الكبيرة، وكانت النمسا تميل ضمناً للاعتراف بملك روما أمبراطوراً وبوصاية زوجة نابوليون الثانية ماري لويز عليه، بينما كان همّ بروسيا الوحيد تجزئة فرنسا للقضاء عليها نهائياً، أمّا إنكلترا فكانت تنوي تقليص مساحة فرنسا بإرجاعها إلى حدودها التي كانت عليها سنة ١٧٨٩م.

وفي هذه الأثناء كان شعب فرنسا يميل للسلام ويملّ الحرب ويتألّم من المآسي والخسائر التي أصابته بسبب الحروب وأصبح يشعر بالحاجة الماسة للأمن والطمأنينة لينعم بسعادة الحياة كباقي الشعوب. ويظهر أنّ المفاوضات التي قام بها مترنيخ قد فشلت ولم تصل إلى هدفها حوْل فرْض الصلح على نابوليون وأوروبا كلّه، . ويظهر أنّ الأمبراطور الفرنسي بقي خلال المفاوضات على عناده وواثقاً كل الثقة بعبقريته العسكرية، بينما لام القادة نابوليون على الخسائر التي أصابت جيشهم وعلى تدهور فرنسا من النواحي الاقتصادية والسياسية وحتى كامسيريس فقد اعتزل الحكم ولزِم الصّمْت وابتعد عن السياسة.

ولقد تابع مترنيخ من جديد محاولاته لإقناع نابوليون بمعاهدة السلام وإلى ضرورة عودة فرنسا إلى حدودها الطبيعية المعروفة بالألب والراين والبيرينيه، وقد بدأ الهمس فعلاً في فرنسا وخارجها وخاصة في صفوف القادة العسكريين عن ضرورة تنازل نابوليون عن كل مغانم الأمبراطورية التي حصل عليها بواسطة انتصاراته العسكرية.

وكالعادة رفض نابوليون عرض مترنيخ والحلفاء وأصرَّ أمام قوّاده على ضرورة تفاوضه حرباً جديدة لكسر الحلفاء ولإجبارهم على توقيع

السلام بعد الانتصار عليهم عسكرياً، وفي هذه الأثناء تمرّدت هولندا على الفرنسيين وطردتهم خارجها وكانت متطلبات روسيا وبروسيا وإنكلترا كبيرة وكثيرة وكان من شأنها أن تجعل مترنيخ يفشل في خلْق معاهدة سلام جديدة بين نابوليون والحلفاء.

وهنا تحرّكت تيارات عديدة في فرنسا ضدّ نابوليون، كما أن بعضها راح ينادي من جديد بالملكيّة وبعودة آل بوربون إلى عرش فرنسا معتبرين أنّ حروب نابوليون قد جلبت الخراب والويلات إلى فرنسا وشعبها، وهنا بدأ الهمس بشكل أو بآخر حوْل ضرورة تنازل نابوليون عن العرش.

وقد أطلق المارشال لينيه تياراً فيه الكثير من الخيانة، فلم يعتقله الأمبراطور بل تجاهله وتناساه، والحقيقة أنّ لينيه لم يكن وحده في هذا الموقف لأنّ عدداً كبيراً من القادة ومن أعوان نابوليون الإداريين والسياسيين أصبحوا مقتنعين بضرورة تنازل الأمبراطور الفرنسي عن العرش.

في الحادية والعشرين من كانون الأول من تلك السنة، أغار برنادوت على بلجيكا، كما أغار بلوخر على الراين وكان شوارزنبرغ قد توغّل في سويسرا لقطع الطريق وقطع كل صلة بين فرنسا وإيطاليا.

وأمام هذا التحرّك السريع قام نابوليون بتحضير خاطف لجيشه لمواجهة الحلفاء، وقد أقنع كبار قادته بإمكانية تحقيق آماله غير أنّ بعض هؤلاء القادة خيّبوا ظنّه كما فعل ماغدونالد ومارمون ومورتييه وناي وغيرهم والذين بدأوا بالتراجع الذي فسح للحلفاء الوصول إلى مقاطعة اللورين في مدة شهر واحد، ظلّ نابوليون على شجاعته وراح يلهب حماسة الجنود ويخاطبهم بلهجة عاطفية وعسكرية واضعاً كأمانة زوجته

وابنه الوحيد وفرنسا في أعناقهم وكان ذلك في الـ٢٣ من كانون الثاني من تلك السنة.

وبعد ذلك بمدّة رجع نابوليون من باريس إلى شالون وكان قد ودّع زوجته وابنه الوحيد ولعلّه كان ينتظر جيشاً إضافياً يرفده معتقداً أنّ بعض الفيالق ستأتي إليه من بوردو والأردين، بينما راح «هو يؤكّد لقوّاده ولمن حوله بأنّ الفرصة لا تزال سانحة للتغلّب على الحلفاء وردّهم إلى الوراء. واستطاع بشخصيته القوية وكلامه المؤثّر من إضرام نار الحماس في صدور جنوده المخلصين الذين أظهروا كل استعداد للتضحية بأنفسهم في سبيل الأمبراطور وفرنسا.

التقى نابوليون بالقائد بلوخر فكسره واضطرّه للتراجع بالقرب من برلين، وكان بلوخر قد استنجد بشوارتزنبرغ وفي هذه الأثناء حصل شيء خطير هزَّ عظم الأمبراطور عندما عرف أنّ قائده مورا انضمّ هو وفرقته إلى الحلفاء فصرخ بأعلى صوته:

«مورا سيشهر السلاح بوجه الفرنسيين».

وعندما افترق بلوخر عن شوارتزنبرغ لأن الأوّل اتجه إلى نهر المارن قاصداً باريس بينما اتجه الثاني نحو مجرى السين ففرح نابوليون وقال إنها غلطة هامة سيدفع الحلفاء ثمنها لأنّ انفصالهما سيشكّل نقطة ضعف وسينقضّ هو عليهما الواحد بعد الآخر. وفي الواقع انتصر نابوليون على بلوخر وغنم الكثير في معركة ضدّه، كما أنه أرجع شوارتزنبرغ إلى الوراء محققاً بذلك انتصاراً عسكرياً، وفي الحقيقة لقد حقق نابوليون سبعة انتصارات قتالية في ثمانية أيام وأصبح هو من جديد على مشارف فيينّا بينما ابتعد الحلفاء عن باريس.

ولكن القيصر عاد فأقنع الحلفاء بضرورة غزو باريس مرَّة جديدة فحصلت عدَّة معارك بين نابوليون وجيوش الحلفاء، وقد أظهر نابوليون جوانب عديدة من عبقريته العسكرية، كما أنّ معظم قادته نجحوا فعلاً في صدّ الحلفاء وتمزيق جيوشهم، وهنا بدأت مكيدة تالليران الذي كان يتحيّن الفرص للانتقام من نابوليون وإسقاطه، ولقد شعر تالليران أنّ الفرصة أصبحت مؤاتية وقريبة وأنّ بإمكانه الإطاحة بنابوليون.

في ذلك الوقت شاعت أخبار عديدة حول احتلال الإنكليز لمدينة بوردو واستطاع الحلفاء بعد ذلك كسر القائدَيْن الفرنسيين مورتييه ومارمون وأصبحوا قادرين فعلاً على تهديد باريس مباشرة. إن معركة الأمم المعروفة باسم معركة ليبزيغ قد بدأت عندما عبر بلوخر في ٢٦ أيلول نهر الإلبا وعندما عبر برنادوت وشوارتزنبرغ نهر الماين، وكان نابوليون قد حشد جيشاً لمواجهة الحلفاء غير أنّ جيشه كان أقلّ عدداً إذْ لم يتعدَّ المائة والتسعين ألفاً بينما كان جيش الحلفاء يتعدّى الثلاثمائة ألف.

في ١٦ تشرين الأول بدأ الحلفاء هجومهم المركَّز وفي ١٧ من الشهر ذاته وقع قتال شديد وتلاحم بين جيش نابوليون وجيوش الحلفاء، ولقد شعر نابوليون ولأول مرَّة بضعف جيشه أمام ضربات الحلفاء فحاول أن يطلب الهدنة من الحلفاء الذين رفضوها بشكل قاطع بل أصرُّوا على موقفهم بضرورة تحطيم نابوليون عسكرياً، ولقد استأنف القتال في ١٨ تشرين الأول وبدأ الانتصار يلمع في سماء الحلفاء بينما كانت الخسائر فظيعة من الطرفين وفي الليلة ذاتها أمر نابوليون جيشه بالانسحاب جنوباً وغرباً وقد تعدَّت خسائره الستين ألفاً في تلك المعركة، إذاً خسر نابوليون معركة ليبزيغ واستطاع تالليران من إدراك أهميّة انتصار الحلفاء ليسقط نابوليون نهائياً عن عرشه. ولقد دخل جيش القيصر إلى باريس إذْ لم تنفع

كل محاولات نابوليون من توقيف الحلفاء، وهكذا استولى الحلفاء على العاصمة الفرنسية في الحادي والثلاثين من شهر آذار، فدخل القيصر وملك بروسيا وسائر قادة الحلفاء الكبار إلى باريس وراحوا يجوبون في الشوارع بفخر بينما كان بعض الفرنسيين ينادون بضرورة عودة الملكية إلى باريس.

إذاً نستطيع القول إنَّ تآمر تالليران وبعض القادة على نابوليون قد ساعد على ارتفاع الأصوات المطالبة بتنازل نابوليون عن العرش والتخلّي عنه وضرورة أن يكتب وصيّة في ذلك. ولقد شعر الأمبراطور بأنّ المناخ الأخلاقي والنفسي قد تغيّر كثيراً ووقع بينه وبين قادته ومعاونيه وخاصة المارشال ناي وبيرتييه ومارمون مُشادّات عديدة لم يكن بالإمكان تجنّبها، وكانت النتيجة أنه تمّ توقيع الهدنة في قصر فونتنبلو وتمّ تنازل نابوليون عن العرش، وتنصّ المعاهدة على أن يحتفظ نابوليون بلقبه كأمبراطور وبالسلطة الكاملة على جزيرة ألبا شرط أن يُؤمَّن له سنوياً منحة بقيمة مليونين فرنك مع تخصيص مبالغ مماثلة لإخوته وأخواته وقد بدا نابوليون حزيناً ويائساً فحاول الانتحار، وفي النهاية اجتمع بجنوده وقادته في قصر فونتنبلو وودّعهم بشكل عاطفي مؤثّر ثم شكرهم وقبّل العلم الذي يحملونه واتّجه فيما بعد وخلال ثمانية أيام إلى جزيرة ألبا التي ستصبح أمبراطوريته الصغيرة، وأثناء الطريق كان يتألّم عندما يسمع وهو في العربة التي تنقله أصوات الناس التي تنادي بضرورة عودة الملكيّة ورجوع آل بوربون إلى باريس وفرنسا وعرشها.

المائـة يـوم

تريّث الملك لويس ١٨ قبل العودة إلى فرنسا مع علمه أنّ نابوليون قد انتقل إلى جزيرة ألبا، وكان هذا الملك قد غادر بلاده مدّة ثلاث عشرة سنة ولكنه لم ينقطع أبداً ثم تتبّع أخبارها السياسية والعسكرية وكان أيضاً على معرفة تامة بما حصل في أوروبا.

أمّا تالليران فقد أوحى لمجلس الشيوخ عدّة مرّات، كما أوحى لأتباع لويس ١٨ بضرورة عودة هذا الملك إلى العاصمة باريس لتسلّم الحكم فيها وإعادة نظام الملكية إلى فرنسا بعد أن أصبح نابوليون منفيّاً أو شبه منفيّ في جزيرة ألبا.

وفي هذه الأثناء كان لويس الثامن عشر يسكن في بريطانيا وفي مدينة هارتول، غير أنه تأخّر بعض الوقت وذلك من باب الحذر والتريّث قبل العودة إلى فرنسا التي كانت تنتظره.

وكذلك فقد كان تأخّره للتأكّد من موقف أوروبا من عودته وخاصة الحلفاء، النمسا وبروسيا وإنكلترا وروسيا إلخ. . . لقد وصل هذا الملك إلى مدينة كاليه في طريق العودة إلى الوطن وكان الشعب الفرنسي قد بدأ يشعر بالتعب والحيرة والخيبة والأزمة الاقتصادية نتيجة حروب نابوليون

غير أنّ هذا الشعب نفسه لم يستتر بسهولة، هدوء الملك وبطأه في التحرّك لأنه اعتاد على شخصيّة الأمبراطور الفرنسي المعروفة بالحزم وسرعة القرار والديناميكية والسرعة في الفهم وإبداء الرأي، وهكذا بدأ الشعب يفتقد نابوليون ويشتاق إليه. غير أنّ لويس ١٨ كان شديد الإيمان بضرورة وأهميّة إعادة الملكية إلى فرنسا.

ويظهر أنّ بعض الرجال والأعوان من أمثال تالليران راحوا يستقبلون الملك في مدينة كومباني، وعندها شعر هذا الملك أنّ إمكانية العودة إلى باريس أصبحت معقولة وأنّ معظم رجال الإدارة والسياسة وقادة الجيش على استعداد للتعاون معه.

لقد انتدب لويس ١٨ تالليران نفسه وبعض الرجال الفاشلين في الإدارة للإشراف على أمور الدولة، وكان هذا هو هدفه الأوّل عند دخوله إلى باريس، وقد وجد تالليران في هذه المناسبة فرصة لتوقيع معاهدة سلام تعيد فرنسا إلى حدودها سنة ١٧٩١م مع الاحتفاظ ببعض المقاطعات كالسافوا ونيس وغيرهما وهكذا أعطت الظروف الجديدة للحلفاء فرصة اقتسام أمبراطورية نابوليون وممتلكاته والسطو على معظم ما كسب نابوليون وكسبت فرنسا نتيجة الانتصارات العسكرية العديدة التي أحرزها الأمبراطور.

أحاط بالملك عدد لا يُستهان به من الرجال المشكوك بإخلاصهم، وبذلك بدأت حملات تطهير الجيش تتكاثر بشكل عشوائي، وكان قد سرّح المسؤولون القادة المخلصين وأصحاب الكفاءات العسكرية، وبذلك بدأت النقمة والحقد والانقسام واليأس تجتاح قلوب الشعب والجيش.

حاول القيصر الروسي تحقيق أعظم المكاسب أثناء غياب نابوليون

في جزيرة ألبا غير أنّ تالليران مال إلى مترنيخ ووقّع معه معاهدة خاصة ممّا اضطرَّ القيصر الروسي للتراجع عن موقفه السابق وقبول الواقع. إنّ معاهدة ڤيينّا سنة ١٨١٤ أعطت لروسيا نصف بولونيا، كما أعطت لبروسيا نصف بلاد الساكس واجتمعت ألمانيا بشكل دولة كونفدرالية يرأسها أمبراطور النمسا ثم انضمّت النروج إلى السويد. وانصهرت بلجيكا وهولندا في مملكة جديدة بزعامة أورنج، كما أنّ سلطة البابا عادت من جديد لتشمل أوروبا بكاملها.

حاول نابوليون بعد وصوله إلى جزيرة ألبا من العيش بهدوء وسلام قدر الإمكان، وظنّ أنّ باستطاعته تمضية بقيّة عمره في تلك الجزيرة الصغيرة غير أن شخصيّته الطامحة والديناميكيّة لم تستطع قبول هذا الموقف بسهولة، وهنا بدأ الأمبراطور الفرنسي يفكّر بالعودة إلى بلاده وكان في الجزيرة ذاتها قد حضّر أسطولاً صغيراً، كما استغلّ مناجم الحديد ولطالما أمضى أوقات فراغه بالمطالعة وتدريب جيشه الصغير وحضور المسرحيّات المأساوية.

اعترف نابوليون عدّة مرّات بأخطائه أمام قادته وجنوده ومعاونيه، ولكنه أكّد كذلك على أهميّة انتصاراته في معاركه الأخيرة أي لوتزن وبوتزن ودرسدن، كما أكّد مراراً على دور القدَر بمعاكسته والوصول إلى الحالة التي وصل إليها، وأحياناً كان يجوب الجزيرة على صهوة حصانه ويُصغي بإمعان لأقوال جنوده ويشرف على التمارين العسكرية لجيشه الصغير، وفي ذلك الوقت وصلت إليه والدته وشقيقته بولين فتصدّرتا البلاط الجديد، أمّا زوجته الثانية ماري لويز فلم تحضر إلى الجزيرة بل ذهبت مع ولدها إلى النمسا لتعيش في قصر ذويها وكان يصطحبها الجنرال تيبرغ الذي أصبح فيما بعد عشيقها. كان الأمبراطور في تلك المرحلة يشكو الضِّيق

الاقتصادي لأنّ المال الذي كان بحوزته لم يكن كافياً لتغذية جيشه وتحقيق مجمل مشاريعه.

بقي الأمبراطور مدّة طويلة يتتبّع أخبار العاصمة باريس، وكان يقرأ الصحف الصادرة في فرنسا ويُصغي إلى كلّ حديث عن بلاده، لقد شعر أنّ معاهدة ڤيينّا قد خنقت الثورة الفرنسية التي انطلق منها وحارب باسمها وتحت شعارها.

ومع إطلالة السنة ١٨١٥م بدأ نابوليون التفكير جدّياً وعملياً بالعودة إلى باريس، وقد أخبر والدته عن خطّته للعودة ومؤكداً أنّه لا يرضى أبداً أن تنتهي فرنسا وترضخ بعد معاهدة ڤيينّا، فأعلن استعداده لمحاربة الحلفاء من جديد وللمجازفة بحياته من أجل فرنسا، ثمّ أطلع الأمبراطور برتران ودريو على مجمل خطّته وفي الحادي والعشرين من شهر شباط من تلك السنة غادر نابوليون جزيرة ألبا وأبحر إلى فرنسا وقد استطاع الوصول بالرغم من الأخطار المحدقة بسفنه والتي كان الخلاص من الأسطول الإنكليزي ضرباً من الحظّ وحسن الطالع خاصة وأنّ السفن الحربية للإنكليز كانت تسيطر بشكل مطلق على معظم البحار والمرافىء.

وصلت سفن نابوليون إلى خليج جوان فنزل مَن فيها إلى الشاطيء وعرف نابوليون في ذلك الحين أنّ طولون ومرسيليا ووادي الرون تركوها على مذهب الملكيين، فقرّر اعتماد طريق الألب للعودة إلى باريس، وكان الناس والفلاّحون دائماً يستقبلونه ويهتفون باسمه وينادون به أمبراطوراً على فرنسا.

ظلّ نابوليون يحذّر جنده باستمرار من إطلاق أيّ رصاصة على الفرنسيين، كما حذّرهم من الاصطدام وإراقة الدماء والتنكّر للأهالي، إنه

يريد الوصول إلى باريس بسلام وأمن مع تأييد الشعب له.

لقد اخترق نابوليون في طريق العوْدة مدناً ومناطق عدّة ولم يخف من أيّ معارضة أوْ من أيّ إحساس بالخطر غير أنه عندما وصل إلى مدينة غرنوبل حصل شيئاً لم يكن ينتظره، خاصة أنّ الجنرال مارشان قد أراد التصدّي للأمبراطور، لقد أرسل هذا الجنرال بعض الجنود لقطع طريق نابوليون غير أنّ الأمبراطور الفرنسي خاطب هؤلاء الجنود برفق فأثّر عليهم ودخل حبّه إلى قلوبهم، خاصة عندما كشف عن صدره أمامهم سائلاً إياهم إذا كانوا حقاً يريدون قتل أمبراطورهم، ولذلك لم تنفع الأوامر بإطلاق النار على نابوليون ولقد استجاب الجنود للأمبراطور ورفعوا بنادقهم تأييداً له وابتهاجاً بعودته، وهنا شعر نابوليون بنجاحه فقال:

«لقد انتهى كلّ شيء، وبعد عشرة أيام سأكون في قصر تويلري».
وعلى أثر ذلك دخل نابوليون مدينة غرنوبل دون أيّ خوْف وكان رجاله قد أصبحوا بعدد السبعة آلاف وكان هدفه الأوّل بعد الوصول إلى باريس خلْق فرص جديدة للسلام في فرنسا وأوروبا.

بقي الملك لويس ١٨ على هدوئه ورباطة جأشه بعد أن أخبره أعوانه بعودة الأمبراطور إلى فرنسا، ولكنه حاول التخلصّ من أيّ شعور بالارتباك والخوْف والفوضى بإرسال أخيه الكونت دارتوا إلى مدينة ليون لتنظيم المقاومة المدنية والعسكرية في وجه نابوليوْن، وقد حاول هذا الكونت أن يقوم بذلك بمؤازرة ماكدونالد الموجود في بوردو، كما أنّ مجلس الوزراء أذاع نداءً يقضي بجعل كل مواطن فرنسي محارباً في وجه نابوليون.

تعاون جميع الملكيّين للتخلّص من الأمبراطور وقد وجدوا في موقف لويس ١٨ الفرصة السانحة للقضاء نهائياً على نابوليون، وقد أقسم

المارشال ناي أنه سيأتي بنابوليون إلى قصر التوليري في قفص من حديد، غير أنّ هذه المحاولات كلّها باءت بالفشل لأنّ الأمبراطور استطاع استقدام الجماهير والجنود حتى أنّ المارشال ناي نفسه ارتمى بين ذراعي الأمبراطور وأعلن ولاءه التامّ له، وهكذا انهارت كلّ محاولات القضاء على نابوليون فرجع هذا الأمبراطور إلى باريس منتصراً، وعلى أثر ما حصل غادر لويس ١٨ قصر التويللري وتابع نابوليون طريقه إلى باريس وإلى قصر التويللري وهو محاط بالشعب والجيش والقادة. ولقد دخل الأمبراطور العاصمة باريس في العشرين من شهر آذار سنة ١٨١٤م، وعلامات النصر بادية عليه. لقد دخل إلى العاصمة محاطاً بكل مظاهر الإجلال والتكريم والاحترام.

معركة واترلو

كان نابوليون في أعماقه يميل إلى السلام خاصة في هذه المرحلة وكان يسعى باستمرار إلى فرض هذا السلام على الحلفاء وعلى أوروبا بكاملها شرط أن يضمن هذا السلام حرية فرنسا وكرامتها وحدودها المعروفة، غير أنّ هذا الميْل للسلام ومهادنة الحلفاء والاتجاه بشكل جديد في السياسة، كلّ هذه الأمور باءت بالفشل لأنّ موقف الحلفاء كان قاسياً ومتطرّفاً ويتعارض كلياً مع اتجاه نابوليون في تلك الحقبة من الزمن. فقد صرّح مترنيخ بأنّ النمسا لن تتنازل ولن تتفاوض أبداً مع الأمبراطور الفرنسي لا من أجل السلام ولا من أجل أيّ نوع من المشكلات.

وفي هذه المرحلة الحاسمة بالذات أعلنت ماري لويز أي زوجة نابوليون الثانية انفصالها نهائياً عن زوجها الأمبراطور، كما أنها التجأت إلى الحلفاء لحمايتها هي وابنها؛ ولقد تلقّى نابوليون كلّ هذه الصدمات السياسية والعائلية بإرادة عظيمة وثبات وقدرة على ضبْط الأمور وأوّل محاولة قام بها في هذا المجال هي أنه خلق دستوراً جديداً لفرنسا، ولذلك أعلن على صفحات «جريدة المباحث السياسية» أنه استدعى بنيامين كونستان وطلب منه وضع مخطط لدستور جديد يكرّس النظام التمثيلي والانتخابات الحُرَّة ويضمن الحقوق الشخصية، وبالفعل فقد وافق

الأمبراطور الفرنسي وتبنّى هذا الدستور الجديد ووقّع عليه ونشره رسمياً؛ غير أنّ الملكيين وأعوانهم راحوا يشوّهون مفاهيم هذا الدستور الجديد ويختلقون التفسيرات السلبية لتشويه سُمعة الدستور والأمبراطور نفسه، ولطالما اتهموا نابوليون بالأنانيّة والظلم وحُبّ السيطرة والميْل للطغيان والاستبداد.

وزيادة على ذلك، فإنّ الطبقات البورجوازية لم تنسجم مع نابوليون ولم تقبل بخططه الجديدة، ولقد سارع فوشيه إلى حياكة الدسائس والمؤامرات للتخلّص من نابوليون نهائياً بعد أن تأكّد انكسار نابوليون العسكري في معركة لايبزيغ، وكذلك فإنّ فوشيه حاول التعاون مع مترنيخ للإطاحة نهائياً بالأمبراطور الفرنسي وعرشه، وفي إحدى المرّات، وكان نابوليون قد اكتشف خيانة فوشيه له هدّده بالشّنْق كعقاب على خيانته، غير أنّ فوشيه لم يغيّر مواقفه أبداً من نابوليون.

استطاع نابوليون بشخصيته القويّة وذكائه العظيم من جمع الجنود حوْله وتشكيل جيش جديد؛ وكان هذا الجيش يهتف له وينادي به قائداً وأمبراطوراً؛ ولقد أقسم رجال هذا الجيش على الاستعداد للحرب لتحرير فرنسا من الاحتلال وطرد الحلفاء ولقد أقسم هؤلاء الجنود بكلّ إخلاص ومحبّة وتقدير لأمبراطورهم العظيم.

أوْكل نابوليون أمر الوصاية لأخيه جوزف كي ينوب عنه في أعماله الإدارية عندما يكون غائباً عن باريس، وبعد ذلك بوقت قليل صعد نابوليون إلى العربة التي ستقلّه إلى ساحة المعركة حيث كان الحلفاء قد حضّروا أنفسهم وجيوشهم لمحاربة نابوليون من جديد.

كان جيش الحلفاء في الواقع مؤلّفاً من جيشين كبيريْن أحدهما بقيادة

القائد الإنكليزي ولنغتون والآخر بقيادة القائد البروسي بلوخر، ولقد انفصل هذان القائدان عن بعضهما ممّا شكّل نقطة ضعف عسكرية عندهما، وكان نابوليون قد أدرك بسرعة أهميّة هذا الخطأ محاولاً الإفادة منه عن طريق ضرب الجيْشين الواحد تلو الآخر، إنه ينوي ضرْب بلوخر على شواطىء نهر الموز Meuse وولنغتون في منطقة مونر بسان جان واستطاع الأمبراطور الفرنسي كسر بلوخر وجيشه على ضفاف نهر الموز Meuse وكانت معركة لينييه ligny هي التي انتهت بفوْز نابوليون واندحار بلوخر، وذلك في الخامس عشر من حزيران من تلك السنة.

بعد هذا الانتصار السريع توجّه نابوليون على رأس جيشه إلى منطقة قريبة جداً من بروكسيل ومعروفة باسم واترلو حيث كان يرابط ولنغتون وجيشه على تلّة معروفة باسم سان جان، ومن باب الحيطة والحذر فقد فصل نابوليون عن جيشه فرقة كبيرة تقدّر بنحو ثلاثين ألف رجل وسلّم قيادتها للمارشال غروتشيه بعد أن طلب منه أن يمنع وصول الجيش البروسي إلى ساحة المعركة ويقطع طريقه قبل أن يصل ويتحالف مع ولنغتون، وبذلك أراد نابوليون فصْل الجيشيْن وقطع مساعدة بلوخر لولنغتون استعداداً للمعركة النهائية التي قصد فيها نابوليون كسر ولنغتون كما كسر بلوخر من قبل. وهنا لا بُدَّ من الاعتراف بأنّ الأمطار الغزيرة والسيول والوحول قد أعاقت نابوليون وجيشه ممّا اضطرّه إلى تأخير توقيت المعركة بعض الوقت، وهذا التأخير كان لصالح ولنغتون لأنَّ بلوخر استفاد من الوقت وأوصل فرقاً من جيشه إلى ساحة المعركة، وزيادة على ذلك فإنّ المارشال غروتشيه لم ينفّذ المهمة الموكولة إليه ولم يستطع الالتقاء بالجيش البروسي الزاحف وبذلك لم يستطع تأخيره أبداً. ولعلَّ غروتشيه لم يكتشف موقع الجيش البروسي ولا الطريق التي سلكها، وهكذا بدأت

الفرق البروسيّة تحاصر نابوليون وتطوّقه من الخلْف، وعندما رأى نابوليون أنّ فرقة جديدة تدخل إلى أرض المعركة ظنّ خطأً أنّ المارشال غروتشيه قد وصل إلى ساحة المعركة ليساعده، ولكنّ الصدمة كانت عظيمة والموقف كان حرجاً وقاسياً عندما اكتشف الأمبراطور الفرنسي أنّ الفرقة الجديدة التي وصلت وأصبحت خلفه تماماً هي فرقة من الجيش البروسي، وقد وصلت فوْراً لرفد الإنكليز ومساعدتهم على الفرنسيين.

حاول نابوليون الاعتماد على المارشال ناي لضرْب مقدّمة الجيش الإنكليزي، ولقد استطاع ناي من مهاجمة الخطوط الأولى لجيش ولنغتون، كما حاول نابوليون توجيه الحرس الأمبراطوري إلى منطقة سان جان لضرب الجيش الإنكليزي في الوجه، غير أنّ الحرس الأمبراطوري ما لبث أن تراجع تحت وابل من قذائف المدفعيّة التي جابهته بضراوة، وهنا بدأت نتائج المعركة بوضوح وبدأ نابوليون يشعر بخسارة هذه الحرب ولم يبقَ حول الأمبراطور الفرنسي سوى بعض فرق من الحرس الذين كانوا يتساقطون حوله صفوفاً وأفراداً تحت رحمة الرصاص والقذائف من الإنكليز والبروسيين، فقد أخلص رجال الحرس لأمبراطورهم لأنهم كانوا يموتون وهم يهتفون باسمه: «يحيا الأمبراطور» وبذلك أخلصوا لقسمهم على الموت في سبيل فرنسا والأمبراطور.

وهكذا انتهت معركة واترلو بهزيمة شنعاء للأمبراطور والجيش الفرنسي، وقد اتجه الجيش الفرنسي بعد المعركة إلى منطقة Charlorois .وقد أعطى نابوليون أوامر جديدة أرسلها إلى المارشال غروتشيه إلى الاتجاه بجيشه إلى Nemur، وكان نابوليون يبدو حزيناً ويائساً وفاشلاً ولقد أسرع فوراً بالعودة إلى العاصمة باريس.

كان فوشيه أوّل من استاء من عودة نابوليون إلى الأليزيه، ولقد بدأ الأمبراطور الفرنسي بالتفكير جدّياً بمغادرة فرنسا إلى أميركا، وكان في الوقت ذاته يحلم ويتمنّى أن يقود جيش غروتشيه من جديد ليحطّم بلوخر وولنغتون.

عرف نابوليون من أعوانه ورجاله أنّ الأسطول الإنكليزي يقفل جميع الممرات البحرية ويسدّ كل النوافذ وبالتالي فالرحيل إلى أميركا أصبح صعباً ومستحيلاً. وفي النهاية قرّر نابوليون تسليم نفسه للإنكليز وهم ألدّ أعدائه وأحبَّ أن يصبح ضيفاً على المملكة الإنكليزية فأملى رسالة إلى القصر الملكي الإنكليزي ومما جاء فيها:

«قرّرت أن أختم حياتي السياسية وأن ألجأ إلى أسرة الأمّة الإنكليزية كي أعتصم بنظامها وشرائعها. وإني ألتمس هذا الاعتصام من السموّ الملكي الذي أراه أقدر وأثبت وأكرم أعدائي».

وصل نابوليون إلى إنكلترا على ظهر الباخرة: Bellerephon فأسرع الإنكليز جيشاً وشعباً للتفرّج عليه، ولكنَّ الرسالة التي بعث بها نابوليون إلى القصر الملكي لم تفِ بالحاجة، ولقد اعتبر مجلس الوزراء الإنكليزي أنه من الضروري التخلّص من نابوليون لا قبوله ضيفاً على المملكة. وبذلك انتقل نابوليون إلى البارجة Themberland التي حملته خلال ثلاثة أشهر من السفر إلى جزيرة القديسة سانت هيلين في أبعاد المحيط الأطلسي حيث سيبقى هناك حتى موته ١٨٢١م.

نابوليون في المنفى

في السابع عشر من تشرين الثاني سنة ١٨١٥م وبعد سبعين يوماً في البحر وعلى ظهر البارجة North Themberland وصل نابوليون إلى جزيرة القدّيسة Sainte Hélène الغائبة في الأبعاد الجنوبية للمحيط الأطلسي، وهذه الجزيرة هي بقايا بركان قديم ومعروفة بنتوءاتها وصعوبة مسالكها وضيق مساحتها، وكأنّ الإنكليز وجدوا فيها ما يناسب لجعل نابوليون أسيراً فيها وبعيداً كلّ البعد عن أوروبا.

كان حاكم الجزيرة في ذلك الوقت هودسون لوي، وكان معروفاً بضيق أفقه الفكري وتعلقه بالشكليات القانونية وبخوفه الدائم من أن يستطيع نابوليون أن يهرب من تلك الجزيرة النائية، كما هرب سابقاً من جزيرة ألبا وعاد إلى فرنسا. وقد عجز هودسون لوي عن فهم شخصية الأمبراطور الفرنسي، وكان يكتب له تحت اسم الجنرال بونابرت لأنّ إنكلترا وباقي الدول الأوروبية لم تعترف بنابوليون أمبراطوراً، وفي الواقع كان المنزل الذي حلّ فيه نابوليون عادياً جداً وبمنتهى البساطة وحتى أثاث هذا البيت فقد جُمع ورُتِّب بسرعة دون مراعاة لمكانة الرجل الذي سيسكن فيه ودون مراعاة للانسجام بين قطع المفروشات داخل البيت، ولا عجب بعد ذلك إذا قضى نابوليون ما بقي من حياته تحت وطأة الآلام والإحساس

بالوحدة والغربة في ذلك المنزل بالذات وفي تلك الجزيرة البعيدة.

ويظهر أنّ الأمبراطور الفرنسي قد تعرَّض في جزيرة القديسة هيلانة إلى أنواع عديدة من العذاب؛ منها مراقبة الحرس الإنكليزي لحركاته باستمرار؛ ومنها أيضاً إحساسه بالألم داخل معدته، هذا عدا عن تقلبات الطقس وارتفاع الحرارة والرطوبة. كان نابوليون يتذكّر بمرارة وباستمرار مجمل انتصاراته العسكرية ومعاركه الشهيرة في مصر وإيطاليا وألمانيا وغيرها، كما كان يذكر بمرارة فشله العسكري في بعض المعارك الكبيرة كمعركة لايبزيغ ومعركة واترلو، والحقيقة أنّ الحنين واليأس والغُربة والوحدة والفشل كانت تمزِّق قلب نابوليون وتنغِّص حياته.

وفي سنة ١٨٢١م، وفي هذه الجزيرة البعيدة، وفي هذا البيت المتواضع مات نابوليون. وقد أسرع حاكم الجزيرة هودسون لوي للتأكد من خبر الوفاة وبعد تشريح الجثّة أكَّد الأطبّاء أنّ معدة نابوليون كانت مصابة بالسرطان. ويؤكّد المؤرّخون أنّ الحالة الصحية لنابوليون كانت تسيء تدريجياً، كما أكّد بعض أطبائه أنه أصيب بمرض في الكبد، وفي العصر الحاضر أجريت بعض الأبحاث الطبيّة والكيميائية على خُصل لشعر رأسه فتبيَّن منها أنَّ نابوليون مات مسموماً بالزرنيخ الذي وضعه الإنكليز في طعامه تدريجياً ليتخلّصوا منه، غير أنّ هذه الرواية لم تثبت حتى الآن ولا تزال على مستوى الفرضيات.

وبعد عدّة أيّام حمل المشيِّعون جنازة نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة، وأُطلِقت المدفعية عدّة طلقات وداعاً وتكريماً للرجل العظيم، وقد أصرَّ حاكم الجيزرة هودسون لوي على الإشراف شخصياً على كلّ شيء وعلى كلّ ما ترك الأمبراطور من أوراق وأشياء خاصة، وسار الجميع من

رجال وحرس في جنازة الأمبراطور، وفي تلك اللحظة بالذات أحسَّ الجميع باحترام وإجلال لشخصيّة الميِّت وشعروا بأهمية شخصيته وعبقريته وإنجازاته، وكان مونثولون آخِر من قام بخدمة نابوليون وأشرف على صحته وبقي في غرفته وقرب سريره الذي مات عليه، فلا عجب إذا كان نابوليون قد كرَّمه واعترف بخدماته ومنحه لقب كونت.

اختلف الحاضرون من فرنسيين وإنكليز حوْل العبارة التي يجب أن تكتب على قبر نابوليون، فلقد طلب الإنكليز أن تكتب على لوحة الرخام: نابوليون بونابرت بينما أصرَّ الفرنسيون أن تكتب كلمة واحدة على القبر وهي اسم نابوليون وذلك تمجيداً وتقديراً وإجلالاً للأمبراطور الفرنسي. ومن سوء الأقدار وضعف العقول وسوء التصرُّف فإنّ لوحة الرخام بقيت على القبر بدون أيّة كتابة وبدون أن تحمل أيَّ إسم.

وفي السنة ١٨٤٠م استطاع تيير مؤرِّخ الأمبراطورية أن يقنع الملك الفرنسي بالتماس رفات نابوليون من الحكومة الإنكليزية لإعادتها إلى فرنسا وإلى العاصمة باريس، وبعد الحوار والمراسلة تمَّت الموافقة على هذا الأمر فأرسلت فرنسا باخرتين الأولى تسمى La belle poule والثانيةFavorite لنقل الرفات من الجزيرة البعيدة إلى باريس. وفي الخامس عشر من شهر كانون الأوّل ١٨٤٠م، وصلت جنازة نابوليون إلى باريس واستقبلتها الجماهير وهي تهتف للأمبراطور، كما أنّ بعض الشعراء ألّفوا قصائد في هذه المناسبة، وكانت المدافع تدوّي عندما دخلت رفات نابوليون الـAnvalide، وبعد وقت قصير أقيم للأمبراطور قبر من الرخام والمرمر الملوَّن وأصبح منذ ذلك الحين مزاراً للسوّاح والمعجبين، كما أصبح مَعْلماً هاماً من معالم العاصمة باريس. وهكذا أعاد نابوليون إلى العاصمة وإلى الشعب الفرنسي الذي أحبّهُ كما كتب في وصيَّته.

خاتمة

هذه هي قصة حياة نابوليون الأمبراطور الفرنسي العظيم الذي شغل أوروبا والعالم أجمع. إنه نابوليون الذي تزوّج مرتين، المرة الأولى من جوزفين والمرّة الثانية من ماري لويز، وكان الزواج الثاني نتيجة إصرار الأمبراطور على إنجاب طفل ذكر يرثه ويرث عرش فرنسا والأمبراطورية الواسعة، وحيث أنّ جوزفين على جمالها الأخّاذ وأرستقراطيتها ومستوى عائلتها لم تستطع أن تنجب ولداً لا ذكراً ولا أنثى، فكان لا بُدَّ لنابوليون من خلال منطقه كأمبراطور وعلى رأس أمبراطورية واسعة، كان لا بُدَّ له من البحث عن وسيلة لإنجاب طفل ذكر، وهذا ما يبرّر ويفسّر من وجهة نظره الزواج الثاني من ماري لويز، هذا بالرغم من أنّ الكنيسة الكاثوليكية رفضت في بادىء الأمر مبدأ الطلاق لأنها لم تجد له أسباباً شرعيّة من خلال تعاليمها ككنيسة كاثوليكية.

وهكذا انتهى الأمبراطور العظيم في المنفى البعيد إذْ مات سنة ١٨٢١م في جزيرة القديسة هيلانة وفي أبعاد المحيط الأطلسي، ولقد أملى مذكراته على بعض من رافقوه فظهر في هذه المذكرات بعض الشيء عن شخصيته وأحلامه وأخطائه وانتصاراته العسكرية العديدة. نابوليون الذي بقي سنوات طويلة تحت رحمة هودسون لوي حاكم الجزيرة الذي أساء

بشتّى الطرق لشخص نابوليون والذي لم يعتبره أمبراطوراً بل كان يكتب إليه ويدعوه أحياناً للغداء أو العشاء تحت اسم الجنرال بونابرت، ولطالما جرح هذا التصرُّف مشاعر نابوليون وكبرياءه، ولطالما كرَّر نابوليون أنّه أمبراطور وأنَّ العديد من الدول اعترف به رسمياً. ولقد ذكر نابوليون مأساة حياته وما تعرَّض له مِن إهانة عندما لمّح مراراً أنَّ البابا قد توّجَهُ رسمياً وأنه بذلك أصبح أمبراطوراً شرعياً على فرنسا وأوروبا، وهذا ما يفسِّر لنا رفض نابوليون المستمر لدعوات الغداء والعشاء التي كانت تصله من حاكم الجزيرة.

نابوليون الرجل العسكري الفذّ والقائد النابغة ورجل العصر الحاضر بكامله، هذا الأمبراطور لم يكتفِ بانتصاراته العسكرية الكثيرة بل أعطى فرنسا ذاتها كدولة واقتصاد وثقافة وإدارة، الكثير من العناية والاهتمام، ولا ننسى أنّ نابوليون قد خلّص الشعب الفرنسي نفسه من المجازر الدمويّة التي أهلكته وأتعبته نتيجة الخِلافات الحادَّة بين الأحزاب وبين قادة الثورة الفرنسية ورجالها من أمثال دانتون وروبسبيير. لقد استطاع نابوليون توحيد الشعب الفرنسي بكلّ قواه المتنافرة لإطلاقه جيشاً هائلاً يزحف على أوروبا وينتقل من انتصار إلى انتصار؛ ولذلك أحبّ الجنود قائدهم ووثقوا به، فلقد أمَّن لجيشه وشعبه ودولته، انتصارات وافرة كانتصاره في معارك لودي وأركول وريڤولي في إيطاليا ومعركة الأهرام وأبي قير في مصر ومعارك أوسترليتز وبينا ووغرام في ألمانيا وغيرها وغيرها...

إنّ معارك نابوليون العديدة واجتياحه لأوروبا وحمله لمبادىء الثورة الفرنسية واستعداده الدائم للقتال وإعلان الحرب على مَن يشاء وفي الوقت الذي يشاء... كلّ ذلك جعل أوروبا تنفجر في وجهه تحت شعار القوميّات، وفي الواقع، لقد بدأت كلّ دولة أوروبية وكلّ أمّة بدراسة

تاريخها وخصائصها التي تميِّزها عن غيرها وتسعى إلى رسم حدودها الجغرافية بمنتهى الجرأة والدِّقة، ولذلك أصاب المؤرِّخون عندما ربطوا بين حروب نابوليون ونشوء القوميّات في أوروبا، ومثل هذا الموقف امتدّ تدريجياً إلى الشرق ولو بعد حين من الزمن.

قلنا إنّ نابوليون أعطى الشعب الفرنسي اهتماماً خاصاً، فسعى إلى ضبط الأمور والقواعد التي تؤمّن وحدة الشعب ووحدة فكره ومستوى تعامله مع نفسه ومع الآخرين، ومن هنا نفهم كيف وحّد نابوليون الموازين والمكاييل، وكيف أسّس لجنة الشرف، وأهمّ من كل هذه الأشياء هناك القانون الشهير الذي عُرف باسم قانون نابوليون والذي أصبح مع التطوّر أساساً لمعظم قوانين الدول الأوروبية وبعض الدول العربيّة؛ إنّ قانون نابوليون هو محطة ثقافية وإدارية وقضائية في تاريخ تطوّر فرنسا وأوروبا والعالم؛ لقد كان نابوليون يجمع القضاة ويحثّهم على إتمام القانون وإنجازه بسرعة وكان يناقشهم في الكثير من المسائل، كما أنه كان يشعر دائماً أنَّ المذابح والفوضى والخراب والتناقضات التي عمَّت فرنسا نتيجة الثورة لا بُدَّ من وضع حدّ لها بشكل إداري وقضائي أي عن طريق إنشاء قانون جديد يُساوي بين الجميع ويحلّ مشكلاتهم وينظّم حياتهم وسائر معاملاتهم الاقتصادية والتجارية والثقافية.

إنَّ أعمال نابوليون الإيجابية كثيرة، ونبوغه العسكري وتفوّقه في المعارك أمور لا يشكّ أحد بها، ولقد خاض أكثر من ستين معركة عسكرية وإذا كان قد خسر معركتين هامتيْن كمعركة ليبزيغ (معركة الأمم) ومعركة واترلو فإنّ الخسارة لم تكن لنقص في التخطيط والنبوغ وحُسْن القيادة بل كانت تعود دائماً لأمور خارج المجال العسكري والميداني.

غير أنّ بعض المؤرّخين والنقّاد يشيرون باستمرار إلى بعض الأخطاء التي اقترفها نابوليون والتي كانت سبباً مباشراً في تقويض أمبراطوريته العظيمة ومنها حرب أسبانيا والطلب من قوّاده إرغام الأسبان بالقوة عن طريق سفك الدماء والمجازر المفتعلة وقتل النساء والأطفال لجعل الأسبانيين يعترفون بأخيه جوزف ملكاً عليهم؛ ومنها أيضاً زحْف نابوليون على موسكو فهو إذا كان قد انتصر عسكرياً في معركتي سمولنسك والموسكوفا فإنه بالرّغم من الانتصار العسكري قد فشل في إقناع القيصر الروسي بالتوقيع على معاهدة وعلى دخول الحصار القاري في وجه إنكلترا خاصة وأنّ القيصر الروسي نقل عاصمته من موسكو إلى بطرسبرج عندما علم بوصول نابوليون ووقوفه على أبواب موسكو، فإذاً بالرغم من الانتصار العسكري في سمولنسك وموسكوفا فإنّ الأمبراطور الفرنسي قد خسر معظم جيشه في عملية الانسحاب في قسوة الشتاء الذي قضى على الجيش الكبير ودفن معظمه في الثلوج والوحول ولقد ذاق من بقي من هذا الجيش الأمرَّيْن عند اجتياز نهر الباريزينا، ولم ينجح ما بقي من الجيش في اجتياز الجسور إلاّ بأصعب الظروف العسكرية والمناخيّة؛ وعندما وصل الجيش الكبير بعد انسحابه من موسكو إلى باريس كان قد تحوّل إلى أشلاء، فقد ضعف من حيث العدد وخسر الكثير من مدافعه وعرباته، هذه الخسارة عند العودة من موسكو هي نقطة الضعف الأساسية التي استفاد منها الحلفاء لمواجهة نابوليون عسكرياً ولكسره في معركة لايبزيغ إذْ كان تفوّق الحلفاء على نابوليون هائلاً بالعدد والعُدَّة ولم تكفِ عبقرية نابوليون العسكرية في تأمين الانتصار.

وعلى كلّ حال، لا زال نابوليون يحتلّ مرتبة عالية جداً بين كبار الرجال في التاريخ البشري، وهو القائد الوحيد الذي يقارنه العسكريون

والمؤرّخون والنقّاد في العصر الحاضر بأكبر الرّجال في العصور القديمة من أمثال الإسكندر وهنيبعل ويوليوس قيصر. ولا يزال العديد من الكليات العسكرية يدرّسون بعض خططه في الحرب ويعتبرونه مبدعاً ومجدِّداً لفنون القتال العسكري في العالم. فلا عجب بعد ذلك إذا عرفنا أنّ نابوليون هو الإنسان الذي كتب عنه الناس وفي كلّ اللغات، مئات الآلاف من الكتب ولا يوجد في عصرنا من يشبهه في هذا المجال؛ إذْ ما كُتب عن شارلمان وبسمارك وهتلر وموسوليني وغيرهم.. لا يعادل جزءاً طفيفاً من مكتبة نابوليون.

لقد اقتصر بحثنا هذا على أهمّ النقاط والمواقف وأهمّ المراحل التي مرَّ بها نابوليون والأمبراطورية بدْءاً من مولده في جزيرة كورسيكا إلى نفيه إلى جزيرة ألبا، ومن خروجه من هذه الجزيرة الأخيرة إلى معركة واترلو حيث كانت النهاية العسكرية وكانت في الوقت ذاته بدءاً لحياة المنفى في تلك الجزيرة الصغيرة والبعيدة بعد أن رفضت الحكومة البريطانية قبوله ضيْفاً عليها، كما طلب نابوليون نفسه في إحدى رسائله إلى المملكة الإنكليزية بعد انكساره في واترلو وبعد قراره الحاسم بترك الحياة السياسية والابتعاد عن الحرب والسياسة معاً. ولم تتحقق أحلام نابوليون بالنسبة لابنه الوحيد لأنّ هذا الولد قد عاش مع أمّه ماري لويز وفي بلاط جدّه في قصر من قصور بروسيا، لقد عاش هذا الولد وكبُر ومات ولكنه لم يلعب أبداً دوراً في سياسة أوروبا أو في معركة من المعارك العسكرية، ويبقى نابوليون الأمبراطور الفرنسي مالِئاً آفاق العصر الحديث ومخيّلة الأدباء والقصّاصين وأبحاث المؤرّخين ويبقى الأمبراطور الفرنسي وحيداً في حياته وموته وقدره.

المصادر والمراجع العربية

- أوبري، أوكتاف: نابوليون - نقله إلى العربيّة متري شمّاس. المنشورات العربيّة - المطبعة البوليسيّة - جونية (لبنان) ١٩٦٩م.

- الحويك، الياس طنوس: تاريخ نابوليون الأوّل ٣ أجزاء، دار ومكتبة الهلال، القاهرة ١٩٨١م.

- شيخاني، سمير: نابوليون الأسطورة - رجل الحبّ والحرب - دار الجيل، بيروت، طبعة أولى ١٩٩٢م.

- صفا، العقيد محمد أسد الله: نابوليون - سلسلة أعلام الحرب - دار النفائس - بيروت طبعة أولى ١٩٨٨م.

المصادر والمراجع الأجنبية

- Bainville. J: Napoléon, Fayard, Paris, 1941.
- Baldet. Marcel: La vie quotidienne dans les Armeés de Napoléon. Hachette. 1964.
- Bottet Capitaine: Napoléon aux Camps de Boulogne, Editious modernes s. d.
- Brotonne. L: Dernières lettres inédites de Napoléon. 2vol. 1902.
- Brunon. J: Grenadiers de Napoléon, Brunissen, Paris 1955.
- Butterfield. H.: The peace - Tactics of Napoleon 1929.
- Chambray (Misde): Histoire de l'Expédition de Russie, Paris 1823. tome II.
- Chandler. D.: The Campaigns of Napoleon 1966.
- Chardigny. L.: Les Maréchaux de Napoléon, Flaumarion 1946.
- Chuquet. Arthur: - La jeunesse de Napoléon 1897 - 1898 2vol. colin.

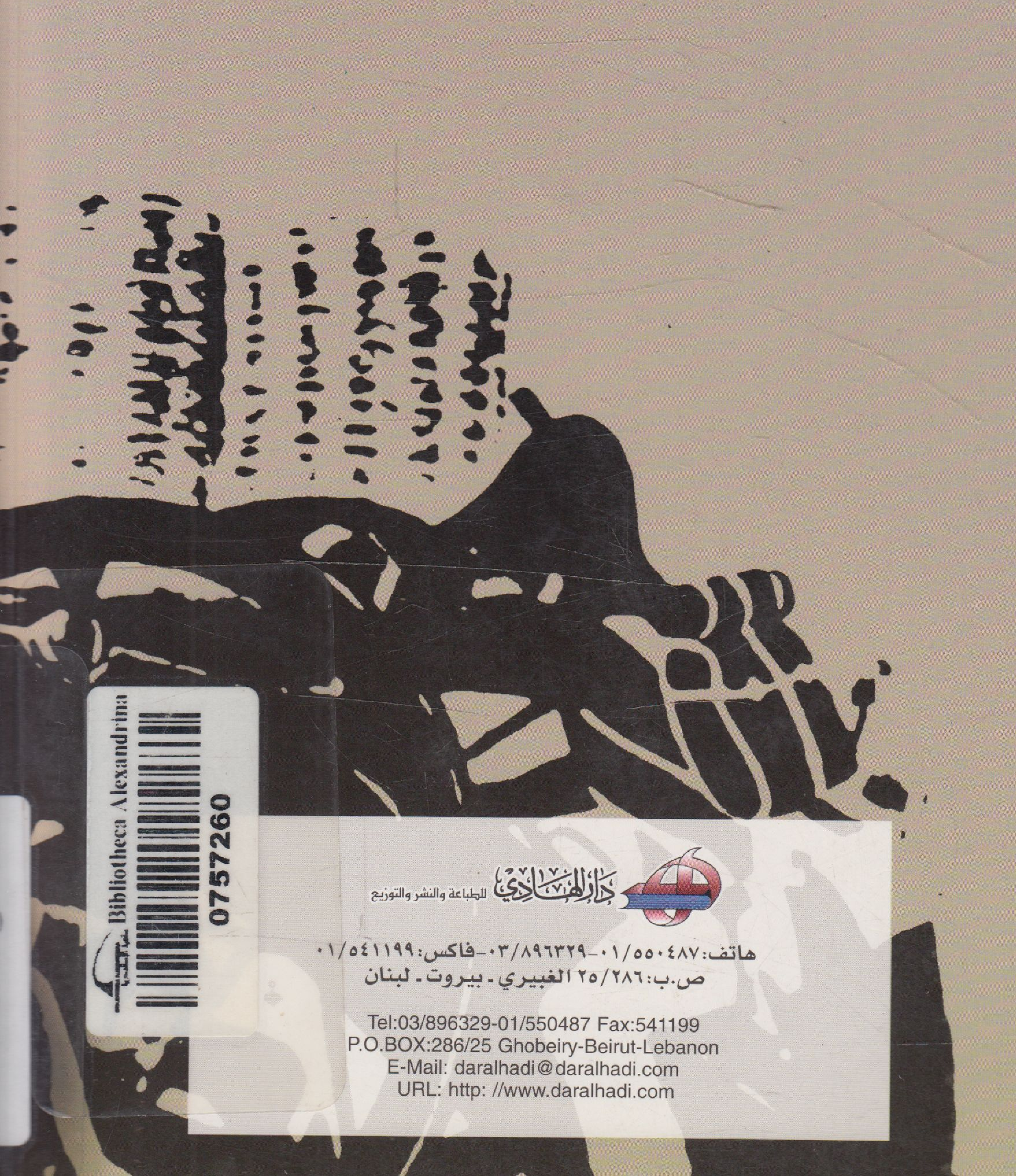
  - Ordres et apostilles 4 vol 1911 - 1912.
- Colin. J: Education Militaire de Napoléon 1900.
- Comean. De: Souvenirs des guerres d,Allemagne, plon 1900.
- Cronin. Vincent: Napoléon - Penguin Books 1973.
- Dard. E: Napoleon and Talleyrand 1935.
- Estre. Henryd': Bonaparte, plon. 1944.

- Fézensac. Duc de: Souvenirs militaires, Dumaine, Paris 1863.
- Fugier. A: Napoléon et l'Espagne 1930; Napoléon et l'Italie 1947.
- Fusil (Mme Louise): - L' incendie de Moscou et la retraite de Napoléon, paris, 1817.
  - Souvenirs d'une actrice, paris 1841, 2vol.
- Geyl. Pieter: Napoléon for and Against. Trauslated from the Dutch byolive renier - penguin Books 1947.
- Godlesvski. Guy: Trois cents jours d'Exil. Napoléon à l'Ile d'Elbe. Hachette 1961.
- Guillon: Les complots militaires sous la Restauration, plon, Paris 1895.
- Hales. E: Napoléon and the pope 1962.
- Handelsman. M: Napoléon et la Pologne 1909.
- Hartmam & Millard: Notice sur le champ d' Asile, Béguin, Paris, 1819.
- Herold. J. Christopher: The mind of Napoleon. NewYork and London Columbia University Press. 1961.
- Holland Rose. Y: Napoleonic studies 1904, personality of Napoleon 1912.
- Jourdan. L.: Embarquement de Napoléon à l'ile d'Aix tome 36 et 39 de la Revue des Etudes Napoléoniennes.
- Lachouque (Commandant): La fin d'un monde: Waterloo. Ed. Haussmann, Paris, 1958.
- Lefebvre. Georges: The french Revolution from its origins to 1793 translated from the French by Elizabeth Moss Evanson.

London 1971.
- Lucas - Dubreton: Napoléon devant l'Espagne, Fayard, Paris, 1946.
- Madelin. Louis: Histoire du consulat etde l'Empire: la catastrophe de Russie, Paris, Hachette. T. 12. 1949.
- Mameluk. Ali (L.E. Saint - Denis): Souvenirs sur l'Empereur Napoléon, Paris payot, 1926.
- Manceron. Claude: Austerlitz 2 décembre 1805, Robert Laffont Paris 1960.
- Martineau. Gilbert: La vie quotidieune A Sainte - Hélène au temps de Napoléon - Hachette - 1966.
- Masson. F.: Cavaliers de Napoléon, Albin Michel, Paris, 1894.
- Mauguin. G.: Ney et Bliicher à Nancy en 1814, Berger - Levrault,1930.
- Nicolăi: Napoléon aux camps de Boulogne, Perrin Paris 1905.
- Palmer. A.: Napoleon in Russia 1967.
- Picard et Tuety: Correspondance inédite, conservée aux Archives de la Guerre. 4vol. 1912.
- Ravignant. Patrick: Ce que Napoléon a vraiment dit. ed. Stock 1969.
- Robiquet. Gean: La vie quotidieune au temps de Napole'on. Hachette 1942.
- Rosebery. Lord: The last phase. Londres, 1900.
- Sagnac. P.: Législation civile de la Révolution 1898.
- Sausey (Colonel): Les Allemands sous les Aigles françaises, Baden, 1953.

- Schom. Alan: one Hundred Days. Napoleon's Road to Waterloo - Penguin Books London 1994.
- Sorel A.: L'Europe et la Révolution Française 1895 - 1909.
- Stendhal: Napoléon - édition établiée et présentée par Catherine Mariette. stock. Grenoble France 1998.
- Tarlé. E.: Napoleon's Invasion of Russia 1942.
- Thiry. J.: Le coup d'Etat de Brumaire 1947.
  - L' Avènement de Napoléon, Berger - Levrault. 1959.
- Vandal. A: - L' Avènement de Bonaparte 1903.
  Napoléon et Alexandre 1 - 1896.
- Williams. Miss: Relation des évènements de 1815.
- Wilkinson. Spenser: The rise of General Bonaparte 1930.

الفهــرس



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٠١/٥٤١١٩٩
ص.ب: ٢٥/٢٨٦ الغبيري - بيروت - لبنان
Tel:03/896329-01/550487 Fax:541199
P.O.BOX:286/25 Ghobeiry-Beirut-Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com
URL: http: //www.daralhadi.com